اللحاق بآخر عربة في القطار

حسام مصطفى إبراهيم

اللحاق بآخر عربة في القطار / قصص
حسام مصطفى إبراهيم
الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١٠ ش عبد الهادي الطحان، المرج
موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
تدقيق لغوي :
حسام مصطفى إبراهيم
رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٤٤٦٠
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ٠٢٨-٥

اللحاق بآخر عربة في القطار

حسام مصطفى إبراهيم

قصص

الطبعة الأولى

٢٠١٠

اكتب
OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء..

إلى مصطفى محمد إبراهيم..الرجل الذي دلّني على سحر الكلمة، فأصبحتُ من مجاذيبها، ومنحني السلطة على الحروف، فأصبحتُ من مُريديها، وأوقفني على أول الطريق، فلم أزل من يومها سائرًا.

وإلى أمي التي تُسند قلبي وتمنحني المبرر للاستمرار في الحياة.

وإلى زوجتي .. التي أستمد من حبها لي كل ما أكتب.

وإلى ابني مصطفى .. أجمل ما حدث لي في حياتي.

وإلى صديق العمر محمد هشام عبيه.. الأقرب إلى قلبي من الإلكترون لنواة الذرة التي يدور حولها.

وإلى ابن أختي كريم ..الرجل الصغير المجتهد المثقف الذي رأيت فيه كل ما تمنيت أن أكونه عندما كنت في مثل سنه.

اهتزازات صغيرة

"فأنا عندما أطل على نفسي..في هذه الفترة.. لا أفهم.. لماذا وقعت في نفس أخطاء من كنت شاهدًا على تحليقهم الرومانسي.. وسقوطهم الأكثر رومانسية.. فلماذا إذن ظننت أن في قدرتي التحليق مثلهم تمامًا..ولا أسقط مثلهم تمامًا..ما الذي منعني من الاستفادة من أخطائهم..هؤلاء الرومانسيين الطيبين؟!.وما الذي دفعني لأصبح رومانسيًا طيبًا مثلهم؟!"

ياسر شعبان ــ أبناء الخطأ الرومانسي

فـــــرَح

وأنـــت تفتش عن آخر الكتب التي صدرت.. عند صديقك البائع العجوز..الجالس دائمًا وحده على الرصيف..تلمحها.. "فرح".. صديقتك القديمة الطيبة.. بعد فراق غزلته سنون عشر.. تمضي أمامك الآن..في الشارع الطويل المؤدى لمحطة القطار.. وفي يدها..كيس برتقال.. وحذاء أسمر جديد..ينظر إليك في زهو -من خلال كيسه البلاستيكي الشفاف- وطفل صغير.. منكوش الشعر.. تبدو في رجله اليمنى..بعض الجروح.. عينك تغالب دمعة.. ويدك تتحسس المحفظة القديمة... المتخمة بصوركما معًا.. ومع ذلك..تبدو على حافة فرحة... تُخرج ولاعتك.. -التي أهدتها لك ذات يوم-..تدخّن سيجارة وعودها..ولا تتحمل رائحة الدخان الخائن هذه المرة ...تدوس بقدمك عليها.. ثم تركلها.. وتوليها ظهرك..وقبل أن تعاود الاختباء في الكتب.. يصل لمسامعك صوت.. تعرف رائحته جيدًا..يرتّب حروف اسمك..بشكل لا تستطيع نسيانه..لم تسمعه بهذه الطريقة من عشر سنين..ويبدو أنك لم تعش من عشر سنين.. تُقنع كل جسدك بالالتفات.. طفلاً تبدو.. وأنت تفتش بعينيك..عن قطعة "الشوكولاتة".. وعلى جبينك.. بعض العرق.. تلمحها..

وتلمح يدها..وهي تقرص أذن الصغير..مكررة اسمك..وهي تنهره على شيء.. لم تعد تذكره الآن.. ثم تغيب معه..بعد أن تصاعد صوت بكائه.. في طريق جانبي ضيق..لم تكن تعرف أنه موجود فعلاً..في هذا المكان..

أطراف الأصابع

عسمَ الطوفان، وهرع الناس يعتلون الأشجار والجبال؛ لتعصمهم من الغرق، وبينما يعلو الماء وتدوّي الصرخات في كل مكان، كنت أشق الماء بذراعي في إصرار، قاصدا مترلها، لا أثر له.. أُجن.. أدور حول نفسي.. وأغطس في مكانه، حتى ألمحها تقاتل أسفل الماء في يأس، لتخليص يدها مما اشتبك بها، أخلّصها وأصعد بها، ونكافح معا للوصول للسفينة.. نصل، وبآخر قوة في ساعدي أزاحم الفارين، وأتشبث بحاجز السفينة المسرعة، تصعد فوقي، ترتمي على الحافة، وعندما أمد لها يدًا لتنتشلني، تنشغل لحظات بتجفيف شعرها من البلل ونفض ثيابها، أصرخ عليها..تنتبه فزعة وتمد يدها، تتماس أطراف أصابعنا للحظة، قبل أن تُفلت يدي الحاجز وتبتعد السفينة، وعيناي معلقتان بنظرات الذهول في عينيها، والماء الذي لا يرحم يواصل الصعود، ويطغى على صرخات الجميع.

أغلـــى شـــيء

للحظـــة واحدة.. واحدة فقط.. بدا له أنه اكتشف سر الوجود.. عندما قالت له.. "أحبك.."..ثم أطرقتْ..

الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والبشر والعلاقات والموت والحياة واللذة والألم والفناء والولادة والإثم والطهارة والخير والشر..والحكمة السرمد غير ذات الانتهاء..والحب الذي لا أول له ولا آخر... ولا شط ولا قرار..

تلظّى سنوات بالكتمان..أرّقه المجهول.. ولفحه التنائي..استطال الزمن واتحدت الأيام في مؤامرة ضد قلبه.. وكان يريد أن يفك أسر لسانه.. وكان يريد أن يحل قيد مشاعره..ويصرخ.. وبدا له البوح وقتها.. أغلى شيء!

واليوم..كان يريد أن يضمها لصدره.. يضمها بقوة.. حتى تتكسر..ويتكسر..وتندمج الشظايا.. وكان يريـــد أن يـــزرع شفتيها بلهيب شفتيه..وشَهْد عشقه..وسلافة انتظاره....وبدا له ذلك لحظتها.. أغلى شيء..!

بيد أنها لم تلبث أن رفعت رأسها.. ورمـــت إليـــه بنظـــرة ماكرة.. وعادت تكمل..ما قطعت من كلامها.. وهي توليـــه

ظهرها.. وترحل: "أحبك.. أن تكف عن مطاردتي.. فأنـــا لا أحبك.."فاحتجب عن عينيه ما كان قد اكتشف للتو.. كـــف القلب عن ضخ الدم في العروق..حملـــت الـــدقات عـــصاها ورحلت.. وغمس في الظلمة..أطـــرق.. وفي نفـــسه.. تمـــنى الموت.. وبدا له الموت ساعتها..أغلى شيء..!

فيـــــروز

في صخب التحيات.. كانت يدي تفتش عن يدها..وعيني تعبر الوجوه..لتلوذ بوجهها.. يزدحم الرفاق في نشوة الخلاص وألمه..خلف الابتسامات..تختبئ حبـات الـدمع..وخلـف الأمنيات بالخير.. يختبأ خوف مضن من غد..تلتقي الأيدي في لهفة.. وكأنما لن تفتـرق.. وتفتـرق في تخـاذل.. كأنمـا لم تلتق..ويختلط الكلام.. يعلو ويـنخفض ينـدمج.. في كلمـة واحدة.. ضخمة.. مبهمة.. لا تفهم لها معنى.. ولكن تحس لها دويًا آسرًا.. أرقام تليفونات وعناوين ووعود..لن تتحقق أبدًا!!

تسرح عيناي..ترمق الدنيا التي ولّت..تمسح بحنـان علـى المباني.. البشر..العلاقات.. وترتد موسومة بالحيرة والعجـز.. ألف ذكرى..وألف ألم..تأخذني موجـة الـصحاب لبعيـد، مـرات..ومـرات..علـى وعـد قريـب بالعَود..أدنو..وأتباعد..أصل..وأضل..أرمق وجهها الحلو..من فوق سـوار الأكتـاف والـرءوس والأصـوات..وأنتظـر بوجد..موعدي معها.

تنداح الأمواج..تنداح الوجوه.. تتقـارب اللقيـا.. ذات لحظة..وأجدني أمام النور الصادر من عينيها فجأة.. أمد يـدي

لأقصى امتداد.. "يتنطط" قلبي بين ضلوعي.. كأنه يـــركض.. أغرق في الحضور الآسر المتمكن..في الرحابة والامتلاء..في وعد النشوة والبهجة.. "يا فيروز...يا فيروز".. تقترب اليـــد مـــن اليد.. تحتضن النظرةُ النظرةَ.. يهتز الفم..يمور القلب..والـــدنيا تدنو من قبض الأصابع..أكاد أدخل الحضرة..وأطالع الـــسر.. "يا فيروز.. يا فيرو.."

لكن يدها تنحرف فجأة.. لتوضع على كتفـــي.. تنغـــرس الأصابع في قوة.. فأتأوه..تتموج الملامح.. وتتبدل.. فأنتفض.. يخرج الصوت خشنًا.. "ممنوع يا أســـتاذ"..أفيـــق لنفـــسي.. وأحدق في صاحبه ذي السترة الرسمية.. يقف أمامي.. بجـــسده الضخم.. ويضع يده على كتفي.. ينظر نظرته الخبيثة -الـــتي أعرفها جيدًا-.."الطلاب بس".. فأحدق في عينيه.. في الأسوار العالية.. في المباني الأثيرة.. والجموع التي تغدو وتروح.. أطرق لحظة.. أضع يدي في جيبي..أخرج النقود..أوليسه ظهـــري.. أحتضن الجريدة..ودوسيه الأوراق.. وكيس الطلبات..لألحـــق آخر أتوبيس لمنزلي.. وصوت الضحكات المختلطة.. يتناهى إلى مسامعي..من خلف الأسوار..

المقام

تفاجئني أمام منزلي..فتبتسم..وهي تزيح الستر عن وجهها...فيغرقني النور.. يطيش برأسي الدم..ويتراح سُكري..تشير بيدها للبعيد..وتهمس.."اتبعني للمقام"..يخايل عينيّ ضياء مبهر..يبدو على المدى..تفعم أنفي رائحةٌ عبقرية.. أحس نفسي خفيفًا.. فأتبعها في تولّه.. وقلبي ثملٌ..مترعٌ بالوجد.

ينتزعني صوت التليفون في منزلي.. فأفيق.. أُعرض عنها.. وأسرع لأرد عليه.. أرفع السماعة.. أجد الخط قد قُطع... ولم يبق إلا صوت أزيز غامض متقطع.. أرمي السماعة في حدّة.. أهرول إلى الشارع..لا أجدها.. أبحث عنها في كل مكان.. لا أثر.. أنادي عليها بأعلى صوت..فلا أتلقى إجابة.. أسأل عنها الناس..لا يتعرّف عليها أحد.. أرفع بصري للمدى في لهفة... فلا أعود أُبصر أي ضوء على الإطلاق!

أكاد أجن...ولكني لا أيأس... أتسمّر أمام منزلي.. مشرعًا البصر.. أستوقف كل الآتين إلى المدينة.. وأسألهم..أرفع صوتي دائمًا.. وأعاود النداء..أضحك أحيانًا..عندما أتخيلها آتية..وقد صفحت.. وبان البِشر على وجهها.. وأبكي أحيانًا أخرى..

علها تحنّ.. علّها تعطف.. ولم أعد أستطيع الدخول لبيتي..ولا رفع بصري عن البعيد.. وأعلم أنها سوف تأتي يومًا.. تغسلني بالنور والفرحة.. وتشير للبعيد... وتضحك.. وتقودني للمقام.

الــذي فــي القلــب

صــــوت الأقدام يرنّ في فضاءٍ صاحٍ.. أقترب منك أكثر.. أتجاوزهم..

ورغم كل ذلك..أحببتك.. صدقيني.. كانت الـــذكريات والأيام وأنصاف الحكايات..كانت المرارات.. وكانت قصائد الشعر.. كانت الأحزان.. وكانت الدنيا.. وكانت... ولكنك وحدك التي فعلتِها.. وأنا أعيد النظر إليك الآن.. أتأكد حقّــا أنك وحدك التي فعلتِها.. هذه اللحظة.. كل الخرافات تتقـــشر عن جدران الروح.. كل التعاويذ تنحلُّ.. وأستطيع البــوح.. أراكِ.. وأراني.. وأرى العالم وأشعر به -لأول مرة- يــدق في قلبي..أحبك.. مثلما أنتِ..الآن أعترف وأقر.. أحبك.. مثلما أنتِ.. لم أتأخر.. أيام الرحيل بين قلبي وقلبك.. انطفــأتْ.. أينعت اللقيا وأورق التداني..

وأنا أعيد النظر إليك الآن.. العينان العــسليتان.. الــشعر المنسدل.. والجسد المستريح.. أحبك مثلما أنــتِ..ولــيس فيّ إلاكِ.. أشياء كبيرة جدًا.. وأشياء صغيرة جدًا..بيننا.. خاصــة وعميقة.. رحبة وحانية.. تدمج ذراتنا في الآن والبُعد..

الجمع يزداد.. ما همي؟ ضوضاؤهم؟ سـيزولون قريبًـا.. وتبقين وأبقى..

أحبك مثلما أنتِ..السيارات مفتوحة العيون في إشـفاق.. الأصوات الداوية التي تثير الأعصاب.. أقترب منـك أكثـر.. أدخل في هالتك.. أمد يدي الضائعة.. تتماس أطراف أصابعنا في صمت.. أنتعش.. أنا أقوى رجل في العالم.. وأنت أجمـل فتاة في الدنيا.. أنا أعظم رجل في التـاريخ.. وأنـت أمـيرة الأميرات.. أحبك حقًا.. تتشبث يدي بيـدك أكثـر.. حقًـا أحبك..معك أشعر أني على قمة هذا العالم.. لا أخـاف ولا أجامل.. لي جيش ولك بصيرة ولنا معًا عناقيد الأحـلام.. لي فرح ولك انتشاء ولنا معا قوس قزح وشعاع شمس وموجة بحر وتغريدة عندليب..أحبك حقًا.. وأريد أن تـشاركيني ولاداتي المتعثرة..أريـح رأسك على صـدري..أدخل فيك وتدخلين فيّ..أريد أن تفتشي عني فيّ..أريد أن أتسلق جبال طهارتـك.. وصدقيني... -مثلما تعوّدت أن تصدقيني- لا يمنع أبدًا أنـك مسجاة على الطريق..شاحبة قليلاً ورائعـة جـدًا.. نابتـة في طوفان الدم والبشر.. ترمقين العالم في دهـش.. شـشش.. لا تجيبي الآن أرجوكِ.. فأنا كما تعلمين أحبك مثلما أنتِ..

الأمير يعثر على سندريلا

بالأمس حلمت بك، ورأيتني أجوب شوارع المدينة ليل نهار، حولي من الحرس الكثير، ولكن ما أفقرني إليك، وما أشد وحشتي من دون عينيك الفيروزيتين، أحمل فردة "حذائك" الماسي الصغير، أدق كل الأبواب، وأنتظر في صبر وأمل، أن أجدك، وأن أعيد إليك حذاءك، ثم آخذك كلك إليَّ، فأنتِ لم تشاهدي بعد باقي قصري، ولا باقي قلبي، ولم تتذوقي طعم أيامي من دونك.

ألمحك، تنظِّفين الفناء أمام منزل زوجة أبيك، فأحس بك، وحتى من دون أن ترتدي الحذاء، كنت أدرك تمامًا أنه أنتِ، تلك التي حملْتُها بين ذراعي أمس، نرقص ونرقص ونرقص، وحملنا النغمُ، حتى حولنا عطرًا وسحابًا، فأقتربُ، وتمدّين إليَّ ابتسامتك، ويديك، وتشرقين في روحي كالبشارة، فأدرك — فورًا- سر تحول الرصاص إلى ذهب، والبذرة الصلبة إلى شجرة وارفة، وظلمة الليل إلى فجر فَتِي!

أخف إليك وتخفّين إليَّ، وعندما أهم بلمس أطراف أصابعك، أجد الحراس -حرّاسي!- يحولون بيننا فجأة، ويرفعون أسلحتهم في وجهي، وقبل أن أجد الفرصة لأصرخ،

أو أندهش، يطوقني الرصاص من كل جانب، ويُلحِئني للحائط، فألتصق به في رعب، وأنظر نحــوك، وأنــت تتقــدمين عــبر الرصاص، والموت، فأفرح.. وأخاف عليك أكثر..أرفع يــدي في وجهك.. حتى لا تتقدمين أكثــر.. وتمــوتين.. ولكنــك فجأة..تختطفين سلاحًا من أحد الحراس وتصوبين نحوي أنــت الأخرى..وتطلقين!

الجنّـــة

أخرجتُ كل النقود التي في جيبي..أشعلت فيها النيران..فتبددت الظلمة من حولي.. وانعكس اللهب على سطح الماء.. في تشكيلات مبهمة كونية.. ثمة صورة لوجه قديم.. استترف دماء القلب وماء العيون.. أخرجتها..ومسحت عليها بنظري..في ثبات..ثم ألقيتها في النيران.. لكن النيران استمرت في الانطفاء...ألقمتها آخر صفحة تبقت معي..من الجريدة اليومية..الملطخة بالعناوين الكبيرة...فتأججت لحظات..ثم هزل عودها..لم يتبق معي..غير بطاقتي الشخصية.. لم أتردد طويلاً وألقيتها..لأنعم بآخر لحظات الدفء..شعرت فجأة برغبة حارقة في الضحك..فلم أتمالك نفسي..وأطلقت ضحكة عالية جدًا..أفزعتني..فبترها.. قبل أن يعلو الموج ويصطخب.. وتبدأ المركب الهزيلة في التأرجح المسعور..والانصياع لسوط الريح الذي يجلدها.. تيبست أعضائي..وانتشر الملح في فمي..غير أن الضحكة..عاودتني ثانية.. فأطلقتها..لكنها ضاعت..وسط الهدير العاتي هذه المرة..وببقايا النور في عيوني..كنت أرمق في إصرار..ذلك الضوء الفتيّ..الذي يبدو من بعيد..كما لو كان يسعى نحوي..في بطء..وأناة..

الرَّفـــــع

كنت أقــول وأكرّر لكل الذين يلتفون حول الصليب..صاخبين..رافعي الأبصار..(إنه ليس بعيسى).. فيسود الصمت لحيظات.. ثم يعودون لهرجهم..وهم يرمقونني شذرًا.. أكرر بعزم..(إنه ليس بعيسى).. يراودهم الشك فجأة..ينظرون ناحيتي وناحيته.. يتهامسون.. يجيء أحدهم.. وينتحي بي جانبًا.. يبتسم ابتسامة صفراء..ويهمس..(أنت أملنا.. لابد أن نتأكد)..يجيئون بصليب آخر.. يثبتونني بالمسامير.. ويرفعونني عليه.. كنت الآن أجاوره.. أغالب ألمي وفزعي.. أُنعم النظر.. ملهوفًا..أصرخ بأعلى صوت..(ليس بعيسي.. ليس بعيسي)..لكن الريح كانت تصادر صوتي.. فيضيع.. ولا يصل إليهم أبدًا..أُجن..أحرّك رأسي بعنف.. أنادي عليهم.. ولا مجيب.. ومن أسفل.. كان الملتفون يتزايدون.. يرفعون إلينا الأبصار.. يشيرون بأيديهم.. ويصخبون..

الرمـــاد

أسمع صوت طقطقة الخشب المريعة.. وأشم رائحة الدخان العارم المقيت..وألمح الناس يتدافعون في قوة.. فأرتجف.. أبتلع ريقي في صعوبة..أقدّم رجلاً وأؤخر أخرى.. ثم أذهب إلى حيث يحتشدون.. أزيح كل الذين أمامي في رهبة.. مذهولاً..أرمي ببصري وسط اللهيب.. محاولاً الوصول لشيء من رؤية.. ألمح "إبراهيم"..مبتسمًا وشامخًا.. يرمق كل هذا بتسامح لا حد له.. ويهمس بكلمات لا يسمعها أحد..

يا "إبراهيم".. يا "إبراهيم"..والنار التي لا ترحم..تزداد تأججًا.. تغلي وتفور.. تبتلع كل شيء.. وتقترب حثيثًا من "إبراهيم"..أضع يدي على قلبي لأخفي شدة خفقانه.. أداري عينيّ في يأس.. وأبتعد للوراء.. هاربًا من شدة الحرارة.. ولكني..أرى عجبًا.. المارد الأزرق الرهيب..يتأجج وينطفئ.. يلف ويدور حول "إبراهيم"..في تتابعات دوامية عنيفة.. متلألئًا بآلاف الألوان.. هاذيًا بأصوات عالية مرعبة.. وكأنه يتشمم "إبراهيم" في تؤدة..وكأنه يتعرّف عليه..يصعد ويهبط..يدنو ويبتعد..ثم يمضي فجأة متخبطًا..لا يلوي على شيء..النار..النار..ولكنه لا يلبث أن يعاود الارتفاع.. على حين غرة..يبدو مندفعًا..وهو يخترق جموع الناس التي لم تفق

بعد من ذهولها.. فيصرخون في هلع..يتدافعون..يتخبطون.. وهم يحاولون الابتعاد عن طريقه..بيد أني لا أنجح في أن أفعلها وأهرب.. أجده أمامي فجأة.. ثم حولي.. ثم فيّ..

كان "إبراهيم" ما يزال يبتسم.. ويهمهم بترتيلاته الربانية الداوية.. وأنا أصرخ في ألم.. في رعب.. في جنون.. والدخان الأسود الكثيف.. يختلط برائحة الشواء النفاذة.. وهمهمات الناس التي بدت وكأنها آتية من عالم خيالي سحيق.. ورفرفة أجنحة الطيور التي فرت فزعة لبعيد...

الأحـوال والمـواقف

— ١ —

كـــــان الطُعـــــمُ..وكانـــت الـــصنارة.. وكـــان القارب..وكنتُ..وإذ عزمتُ..لم أجـــد أمـــامي.. مـــــاء البحـــــر..

— ٢ —

قال..(اخرج منك.. تـــرني)..فلمـــا خرجـــت..بهـــرني الضـــوء..وأغشى العيـــون.. فأفلتـــت الرؤيـــة.. وإذ أزف الوقت..فعاد..حاولت العودة.. فضللت الطريق إليّ...

— ٣ —

أنظر في المرآة..أرى صورتها.. أفرك عينيّ.. أنظـــر.. أرى.. أكسر المرآة..تنهض..من بـــين الزجـــاج المتكـــسر..تعـــدل ثيابها..ترصدني..أحدّق.. تقفز داخل عيوني..أصـــرخ..تُطبق وراءها الجفون..

— ٤ —

إصبع الطباشير..أمسَكَهُ..على الحائط رسم الحصـــان وقال..(اركب)..على المكتب وضع المفتاح..وأشار نحو الباب

المغلق..وأطلق ضحكة..أمد يدي في الهواء..أُخــرج شيئًا من علف.. يراه الحصـــان.. يتململ في مكانه.. يأتيني مهرولاً.. أمتطيه.. أخطف المفتاح.. أكسر البـــاب.. يجيء العساكر بجردل الماء.. يلقونه على الحصان.. يصـــهل..يرتعش.. يتناثر الجير الأبيض.. أجـــد الأرض المبللة تستقبلني..والأحذية.. وكعوب البنادق والصهيل القديم..

- ٥ -

كـــان الطُعم.. وكانـــت الصنارة..وكـــان القارب.. وكـــانت مياه البحر الصخّاب.. ولم أكـــن..

الحلـــم

ـ ١ ـ

حلمـــت بالأمس.. أنني قطـــرة مطر.. بعثها الله إلى أرضـــك.. لتُزهر وتخضرّ..خشيت أن أقـــص عليـــك حلمي.. فتدّعين العطش.. وتشربينني..مرة واحدة..

ـ ٢ ـ

حلمت بالأمس..أنني حمامة..تحطُّ على سور نافذتك لتستريح..خشيت أن أقص عليك حـــلمي..فتدّعين الجوع وتأكلينني.. بلا إبطاء..

ـ ٣ ـ

حلمت بالأمس..أنني ثعلب وحيد..دائخ في غابات حبك..غلبان بأنوثتك..خشيت أن أقص عليك حلمي.. فتذبحيني..وتفصّلين من جلدي..معطفًا للشتاء..

— ٤ —

حلمت بالأمس..أنني نجم شـــارد في الكون الوسيع..يبحث عن مدارك..خشيـت أن أقص عليك حلمي..فتُغلقين مداراتك في وجهي..وتدّعين..أن عنـدك من النجـــوم ما يكفي.. في أقراطك.. وحُليّك الذهبية..

— ٥ —

عنـدما رأيتك اليوم.. تتأبطين ذراعـه.. وتضحكـــين.. لم أعد أحلم.. لأنني.. لم أعد أنام..

الخـــروج

— ١ —

قــــال النكتة..فضحكوا جميعًا..حتى استلقى بعضهـــــم على قفاه..وبكيـــتُ..

في المساء..صدمته سيارة الشـــرطة التي جـــاءت لتـــــوها مـــن التـــصلـــيح...فبكـــوا جميعًـــا..حـــتى تكرمـــشت وجوههـــم..وضحـــــكتُ..

— ٢ —

كنت أعكف على المـــرأة الـــتي بـــين يـــديّ.. بـــضمير حـــي..تتبدل كـــل يـــوم.. ولا أتبـــدل..وإذ أزف وقـــت الصلاة..كنت الإمام..

— ٣ —

قالوا..(لا تظهر إلا ليقظ).. فأجافي النـــوم أسبوعًا..

قالوا..(لا يراها الخاطئون).. فأغتسل بالماء والمسك والكافور.. أصلّي ...حتى تتقرح ركبتاي..أعفّر وجهي بالتراب ندماً.. حتى يتحول التراب تبرًا..وأقسم..لا أعود خطّاء..

قالوا..(لا تظهر إلا في تمام البدر)..فأراقبه..وفي تمام البدر..تظهر..ببطء..من الموج تصعد..تنشر شعرها الممتد..فتتساقط فضة الماء المستحمة بنور القمر..رويدًا..أتقدم.. فتلتمع عيناها..

قالوا..(لا ينالها إلا جسور).. قبل تمام صعودها..أقفز في الماء..أطبق على يدها..أدني شفتيّ من شفتيها..أهمّ بها وتهمّ بي..لكنها فجأة.. تطلق شهقة..وتنظر لي نظرة ثابتة..لا تستغيث.. يصفرّ الوجه..تغيض العينان.. ويندفق الدم..يغرقني..ويلوّن ماء البحر..قالوا..ولكني لم أسمع قط..

— ٤ —

قال..(إن تقدمتُ احترقتُ..وإن تقدمتَ احترقتَ) .. فلما تقدمتُ..شُلت الأقدام..وانبترت الأيدي..وصُمّت الآذان..وعميَت العيون.. وتصاعد الدخان الأسود كثيفًا.. واحترقتُ..

انتظـــار

سلّمت عليها لآخر مرة..فاحترقت جميع أصابعي..تركتُ لديها لفافة صغيرة جدًا..فيها قلب.. وبعض الدموع والذكريات.. ومستقبل غامض.. قد يأتي.. وقد لا يأتي..لم يكن لديّ وقت فراغ لأنتحر.. فعدت من طريق جانبي نصف مظلم..فوجئت بـ "سيزيف" أمامي.. يواصل عمله الأبدي الممل.. يرفع الصخرة لأعلى جبل.. -أراه الآن لأول مرة- ..فتسقط مسرعة للسفح.. فيرفعها من جديد..مرة..ومرات.. بان البِشر على وجهه عندما لمحني..ناداني..ترددت لحظة.. وأنا أنظر لساعتي..فقد تأخرت عن موعد الفيلم العربي..ثم اتجهت إليه..وجدت العرق يغمره.. حلقه جاف..ويلهث..طلبًا للهواء.. همس في أذني.."احمل عني الصخرة قليلاً أرجوك.. سأروي ظمأى بزجاجة مثلجة..من محل قريب وأعود"..الحق أن منظره أثار شفقتي..فقبلت.. أعطاني الصخرة بفرح..كانت ضخمة وثقيلة..تمطّى في قوة..نفض غبارًا وهمًا من على ثيابه.. قلت بأريحية.."هل تحتاج نقودًا؟"..فنظر نحوي بعتاب.. ثم لوّح بكفه..ومضى..

كنت أواصل عمله بأمانة وشرف.. وكلما تغشّاني التعب.. أو ثقل الحمل عليّ.. أعزّي نفسي..وأهمس.."ربما مازال ينتظر زجاجة "الكوكاكولا" حتى تتثلج"!

الطـــيور

ثانيـــة..يشدني الصوت العارم من نومي..كأنمـــا بـــألف ذراع..فأنتفض.. وأفتح عينيّ على اتساعهما..لأطـــالع نفـــس المشهد.. الطيور السوداء الثائرة..كبيرة الحجم..تحتـــل سمـــاء الغرفة..تلف وتدور.. تنقض علـــيَّ في تـــشكيلات حربيـــة معقدة..ضربات بالأجنحة..خمشات بالمخالب..ومناقيرهـــا..لا تكف عن محاولات فقأ عيني.. أصرخ..بألف حنجرة وألـــف صوت..أحرّك ذراعيّ أمـــام وجهـــي في هـــستيريا..مقلـــدًا المروحة..أترنح..أســـقط علـــى الأرض..أقـــف.. أحـــاول ثانية..أسقط.. أقف.. أهرول نحو المكتب القديم..أرفع "الفازة" الوحيدة..وألقيها نحوهم بأقصى ما أملك من قوة..فلا تـــصيب شيئاً..أسرع نحو "الكاسيت"..وأحطمـــه.. بـــنفس الطريقـــة أيضًا.. وعيناي المحتقنتان ترمقان في ذهـــول.. النوافـــذ الـــتي أوصدها بنفسي أمس..ودعّمتها بالحديد والأسمنت..والبـــاب الموصد هو الآخر بالمزاليج.. أجن..أعاود الصراخ..والأنـــين.. ومحاورة الطيور.. والألم يغرس إبره الساخنة في كل خلية مـــن

خلاياي..يزداد الصخب..تشتد الضربات.. ويستلطخ كل وجهي بالدم.. أصرخ "ماذا تريدون مني؟..ماذا تريدون؟".. تنهار مقاومتي فجأة..أتهاوى باكيًا.. وجسدي يتخلى عني..ألمح النوافذ تتفتح على مصاريعها..تتدفق منها الشمس.. الطيور تتوقف.. تلف وتدور في سماء الحجرة..ترمقني للمرة الأخيرة..ثم تندفع عبر النور.. لتذوب فيه..ألهث للحظة..غير مصدق.. أزحف.. وسط الدم والأنين.. حتى النافذة.. أتسنّد على بقايا الأثاث.. أرفع جزعي..أتأوه.. أتعلّق بحافة النافذة..أرمق الطيور تبتعد.. وتبتعد.. وأنا أعلم.. أنها حتماً..ستعود..

العابـــرون

ـ ١ ـ

رآهـــم مـــن الشُرفة..يعبرون أمام عينـــيه فجأة.. كـــل الأصـــدقاء الذين قابلهـــم في عمره.. نادى عليهم.. فـــأقبلوا هاشين..أخـــذهم بالأحضان..مـــسح دموعـــه ودمـــوعهم.. أجلسهم حوله..وجعلوا يستعـــــيدون الذي كان.. ســـألهم عن أحوالهم.. وشكا لهم حاله..وجد روحـــه تخـــف..وقلبـــه يكبر.. حتى يمتلئ بالصفح.. تصالح مع مـــن تـــشاجر معـــه قديمًا..على حب فتاة..قبّل رأس من أهانها.. عنـــدما رفـــضت خطبته.. واعتذر لمن أوقـــع بينه وبين صديقه ذات يوم.. سرح به الخيـــــال لسذاجة مـــا مضى..تذكّر كلمـــات بسيطة.. لا قيمة لها في ذاتها.. "بحبك".. "ساكت ليه؟".. "بتفكر في إيه وأنا معاك؟".. "هتنـــساني صـــحيح؟"..ولكـــن لـــسحـــرها الغريـــــب المـــــراوغ..جُنّ أُناس.. وأُتـــــرع آخـــرون.. بسعادة لا تُوصف.. تمادت الذكريات..وصفا الحنين..انزاحت الأحمال..وذابت لذعات الحزن..تشابكت أيديهم.. وتعالـــت

ضـــحكاتهم الرائقـــة تـــرج البيـــت..وتـــزرعهم في رحـــم فرحـــــة..حتى تجمع الأطفـــــال مـــن الحجرات.. ينظـــرون إليهم..في دهـــش..ويتغامزون..

ـ ٢ ـ

تحلّق الأطفال حول جدّهم يتهامسون:

– "يا عيال.. جدّو قاعد قدّم المراية... يضحك... ويكلّم نفسه.."

– " زي كل يوم "

– "هو جدو اتجنن ولا إيه؟ "

وعلى الصخب..جـــاءت الأم..وفاجأتهم.. في تلصـــصهم المعـــتاد..فأعملـــــت فيهـــــم يـــدها ولـــسانها..فتفرّقـــوا ضاحـــكين..وهـــم يتحيّنـــون الفرصـــــة...ليعـــــاودوا التلصص.. مـــن جديـــد..

القـــرين

جلس الشيطان في قعر كأس الويـــسكي.. يغـــازلني كـــي أشرب.. أقول له في سخرية.."ما جئت هنا لأصلّي!"..وعندما يُطرق برأسه..ويبقى صامتًا بلا حراك.. أُغافلـــه.. وأجـــرع الكأس مرة واحدة..يحتقن وجهي..وتحمرّ عيناي ويخيّـــل إليّ.. أني أسمع صدى بعيدًا.. لصرخة ما.. تتكرر..أقول للجرســـون الذي يمضي على مقربه.."هل تسمع شـــيئًا؟".. ينظـــر إليّ في بلاهة.. يهرش رأسه.. ويهمس.."هل تريد كأسًا أخـــري يـــا سيّدي؟"..أُشير بطرف عـــيني..إلى الأنثـــى المتناومـــة علـــى البار..وسط صخب الأنوار المتأججة.. أقـــول لـــه بـــضحكة معربدة..."نعم..ولكن من هذه الخمر"..تبدو على ملامحـــه.. أول علامات الإفاقة... يتقدّم نحوها..فيما أمد يدي في حذر.. أتلمّس منابت الشَعر في رأسي.. وعيناي..تزدادان احمرارًا..

الملاك الأبيض

كنت أصل آخر خيط في سجّادة الليل.. بأول خيط في سجادة النهار..أرسم ملاكًا أبيض.. وأحدّثه.."أنت صديقي".. وعندما مر الرجال كعادتهم كل صباح.. هرهم لوحتي.. وأصر أحدهم أن يشتريها بشيك على بياض..أشعر بالفرحة، وهو يدخل يده المكتنزة.. في جيب سترته الغالية..ويُخرج دفتره السحري..ويحرر الشيك فورًا..أمد يدي لألتقطه..ينظر إليّ الملاك الأبيض..نظرة عتاب صامتة..تتحدّر على وجنتيه..لآلئ الدمع..أرتجف..أتردد..يلح الرجل أن أنزل له عن اللوحة.. يشاركه رفاقه.. عندما يلتفون حولي.. في شكل نصف دائرة.. تضيق باستمرار..أختنق.. تأتي طيور من بعيد..وتحوم حول الصورة..الملاك..يُلقي علينا آخر النظرات..يفرد جناحيه فجأة..ويرحل مع سرب الطيور..مُخلّفًا وراءه اللوحة..وقد أصبحت ناصعة البياض..وعلى أصابعي..دمعة من دموعه..

بياض الـــورد

كـــــل الذين التفوا حول جثتي..كانوا يبكون.. ويرددون النظر في إشفاق.. بين ملامحي الغاربة في الدم المتخثر.. المعجونة بالتراب..وجسدي النحيل الهامد.. المغطـــى بـــورق الجرائـــد الصباحية والندى.. والرجل الضخم الذي أمسكوه.. بعـــد أن صدمني بسيارته "الكرولا" الفاخرة..وحاول الهـــرب.. عـــدا حبيبتي..التي وقفت.. غير بعيد عن جثتي..في ثوبهـــا الـــوردي الفاتح..مكشوف الذراعين -الذي كنت أعشقه-..تبتـــسم في صفاء..وتهمس.. "ولكنه الآن يكتمل"..ثم ترفع عينيها للبعيد.. وتمد يدها في انتشاء.. تقطف وردة بيضاء.. من التي راحـــت تنمو في دمي بغزارة..وتزحف لتغطي أرض الطريق.. وترشقها في شعرها الطويل المستحيل..بترتيب بديع..كـــان ســـيعجبني حتمًا.. حتى أصبح سواد شعرها كلـــه.. مختبئًـــا.. في بيـــاض الورد..

فـــوز

صباح مساء.. أتضرّع إلى المنّان..أن يجعلني عصفورًا يحـــطُّ على سور نافذتكِ.. فأنعم بما حرمني منه البُعـــد..وأطـــالع في عينيـــكِ... النـــور والنـــار..وجعلـــني...فحططـــتُ... وعاينت..فانتشيت.. وامتدت يدكِ.. تقبض على جنـــاحي في قوة.. فأستكين.. تتحسس رقبتي.. فأنعم.. تذبحني.. فـــأُغرِّد.. وقلبي مترع ثمل..بالحنين..والغناء..والفرح..

مصادفة

لم أزل أفتش عنّي.. وأسائلني في إلحاح.. أين أجِدُني؟.حتى لَقيتُني مصادفة.. واقفًا قرب منزلي.. مختبئًا مني.. زاهدًا في الحديث معي.. رافضًا حتى النظر إليّ.. وعندما حاولت تليين رأسي..أو إقناعي بالاستماع إليّ -ولو لدقائق- وفشلتُ.. احتددتُ عليَّ.. وتركتُني منفعلاً..ساخطًا عليّ وأنا أنوي.. ألا أفعلها ثانية.. أبدًا...

صباح عادى جدًا

وافــق والد حبيبتي على خطبتنا..هذا الصباح..وجاء قرار تعييني مدرسًا..هذا الصباح..وابتسم جاري في وجهي.. ومــد يده يصافحني..هذا الصباح..ووجدت أتوبيسًا خاليًا.. ومحصلاً رائق البال..هذا الصباح..ووعدني صاحبي.. وأوفى بوعــده.. هذا الصباح..وقامت القيامة –أيضًا– هذا الصباح.

البطل

تحدّتني التي كانت حبيبتي.. وتحدّاني الذي كان صـــاحبي.. وتحدّتني التي كانت عائلتي.. عنـــدما رأوني أبتـــسم.. قـــالوا لي.."لن تستطيع أن تدوس على كل الأحـــزان"..فـــضحكت ساخرًا من جهلهم.. أتيت بورقة بيضاء.. كتبت عليها.."كـــل الأحزان"..وألقيتها على الأرض..ثم دُست عليها.. بكل قوة.. وأنا أنظر إليهم..هازئًا..

السـلام

انغرسـت فوّهـات البنـادق في ظهـري.. المـلآن بالجروح..قالوا لي..(الأرض مقابل السلام)..وافقت..بَـررتُ بوعدي.. وقّعت على عقود التنازل.. بَرّوا بوعدهم.. -وأنـا أحمل حقائبي وأغادر المنزل- سلّموا عليّ...

الـــدَّم

أمسكوني.. وأنا أتجوّل بين المخيمات.. دهسوا الشال الذي على كتفي وانهالوا عليّ ضربًا.. خـــرج الجميـــع يـــدافعون عني..انهالت الأحجار من كل مكان..فاستخدموا أســـلحتهم الحيّة..صرختُ فيهم.. "كفى"..وكشفت عن صدري.. ثمـــة قنبلة..مرسومة بالدم..نزعتُ فتيلها في قوة..وانفجرتُ..

التعـــيين

عصيته..فطردني من المترل..وعصيته.. ففصلني من العمل.. وعصيته.. فربت رأسي في حنان.. وعيّنني في رحمته.

اكـتشاف

كـــنت وحيدًا..وعندما أحببتها..صرتُ..وحيدًا جدًا..!!

جـــــروح غائـــــرة

"ربما انتصرنا على البشاعة ولو لمرة يا " فارس"..وليمتنا ما تزال في أولها..نكاتنا لم نقلها بعد.. أسماكنا مازالت حـارة.. ومكـسوة باللحم..ولم نعرِّ عظامها بعد..ولـن تفـوح منـها قـط رائحـة زنخة..وزهورنا لم نقطفها..وموسيقانا لم نرقص على ألحانها.. ولم نبـدأ استمتاعنا بها.. ربما لم تكن جريمة أن نفترق..ربما كانت الجريمـة..ألا نجرؤ على ارتكابها في الوقت المناسب.. الآن.. سيظل اسمـك أبـدًا يأكلني.. حبًا..وشوقًا وحنينًا وجوعًا..كلما ذكرته..وسأظل أحلـم بالساعات التي لن تصدأ.. لأنها لن تكون..وسأظل أستمتع بقبلاتك التي لن أسامها..لأنني لن أنالها..وستظل شفتاك حارتين بين شفتي.. لن تبردا..لأنني لو أطبقت عليهما.. لما وجدتهما!"

غادة السمان ـــ ليلي والذئب

اللحاق بآخر عربة في القطار



صوتُ بكائِك

لسنوات كنت أريد أن أعرف السر وراء صوت بكائك الذي يقتحم عليَّ غرفتي كل يوم، فيؤرق انفرادي بالليل، ويدفع بالدمعة إلى عيني، لسنوات لم أجرؤ أن أفعلها، وأنظر من خصاص نافذتك، إلا اليوم، لم أستطع أن أقاوم أكثر من هذا، انتظرت حتى نام العالم كله، وتسللتُ على أطراف أصابعي، دقّ قلبي دقة واحدة، أو اثنتين، ثم صَمَتَ، مترقبًا وهيابًا، من الفُرَجِ الضيّقة في النافذة، أمدّ البصر، كنتُ أمحلِكِ بمنتهى الوضوح، وكنتُ ألمح يدَك تمتد لتشغيل الكاسيت، فيصدر صوتُ البكاء الموجع، ثم تتمددين على فراشك، وتغطّين في نومٍ عميق!

قدح قهوة فارغ

قَدّمت لي يدَك في سعادة، قبّلتُ الدبلة، ووضعتُها في إصبعك، ثم قبّلتُ يدَك وجبينَك، وعدنا نبتسم معًا، في وجه فلاشات التصوير، ونصافح الأيدي المهنئة التي تحاصرنا من كل اتجاه، في اليوم التالي، رأيتُك بصحبته في "كازينو" على النيل، تُقبّلين يده وجبينه وشعره، وتبكين، ودبلتي مستقرة بمفردها بجوار قدح قهوتك الفارغ.

عود ثقاب

التقطُتك من أمام ناصية الملهى، لنقضي الليلة معًا، كنتِ سعيدة وأنت ترمقين المائة جنيه التي أخرجتُها من محفظتي، وألقيتُها تحت قدميك ببساطة، وتحاولين بذل أقصى ما تستطيعين لإسعادي، قدمتِ لي بيدك كأسَ العصير، ثقُلتْ رأسي، ثم غبتُ عن الوعي، استيقظتُ فجأة، لم أجدك جواري، لم أجد ساعتي أو ولاعة سجائري، أخرجتُ آخر عود ثقاب كان متبقيًا في علبة منسية ساقطة بجوار الفراش، أشعلتُ سيجارة، وجلستُ أتخيل وجهك عندما تكتشفين أن المائة جنيه مزورة.

حلــوى

اشتريتُ لكِ الحلوى بكل ما في جيبي من نقود، وأسرعتُ لألحقك، وأنت تغادرين مدرستك، قبل أن يأتي الـدك لالتقاطك، توقفتُ أمامك ومنحتُك ما معي، فضحكتِ، ودبدبتِ بقدميك من البهجة، لمحتِ الدَك قادمًا من بعيد، ألقيتِ بكل ما معكِ من حلوى فورًا، دُستِ عليها، وأنتِ تندفعين فرحة لتلقين بنفسك بين أحضانه.

الباب المغلق

رأيتهم يطردونك بالعصا الغليظة من بيتهم، ويوصدون بابهم في وجهك، رق قلبي، وحملتك بين زراعي، وأنت تزومين، وتحاولين خربشة وجهي ويدي، اشتريتُ لك بعض السمك، وقليلاً من اللبن، لوجبة العشاء، وجلستُ أرمقك تلتهمين كل هذا في رضا، وكأنك لأول مرة تعرفين أن هناك طعامًا، غير بواقي الخبز والجبنة والطبيخ الذي تكرهينه، بعد لحظة ارتفع صوت موائك راضيًا وقريرًا، وأنت تتمددين على الأرض، وتغطين في نوم عميق، في الصباح، استيقظتُ على صوت خربشاتك الحانقة للباب المغلق، نهضتُ، وفتحتُ لك، جريتِ مسرعة، فتبعتُك، كنتِ تقفين أمام بابهم المغلق، وتموئين حزينة، تتمسحين فيه بسكون وذل، وتتطلعين بأمل إلى انفراجة، تتمنين ظهورها في الباب الحديدي الكبير.

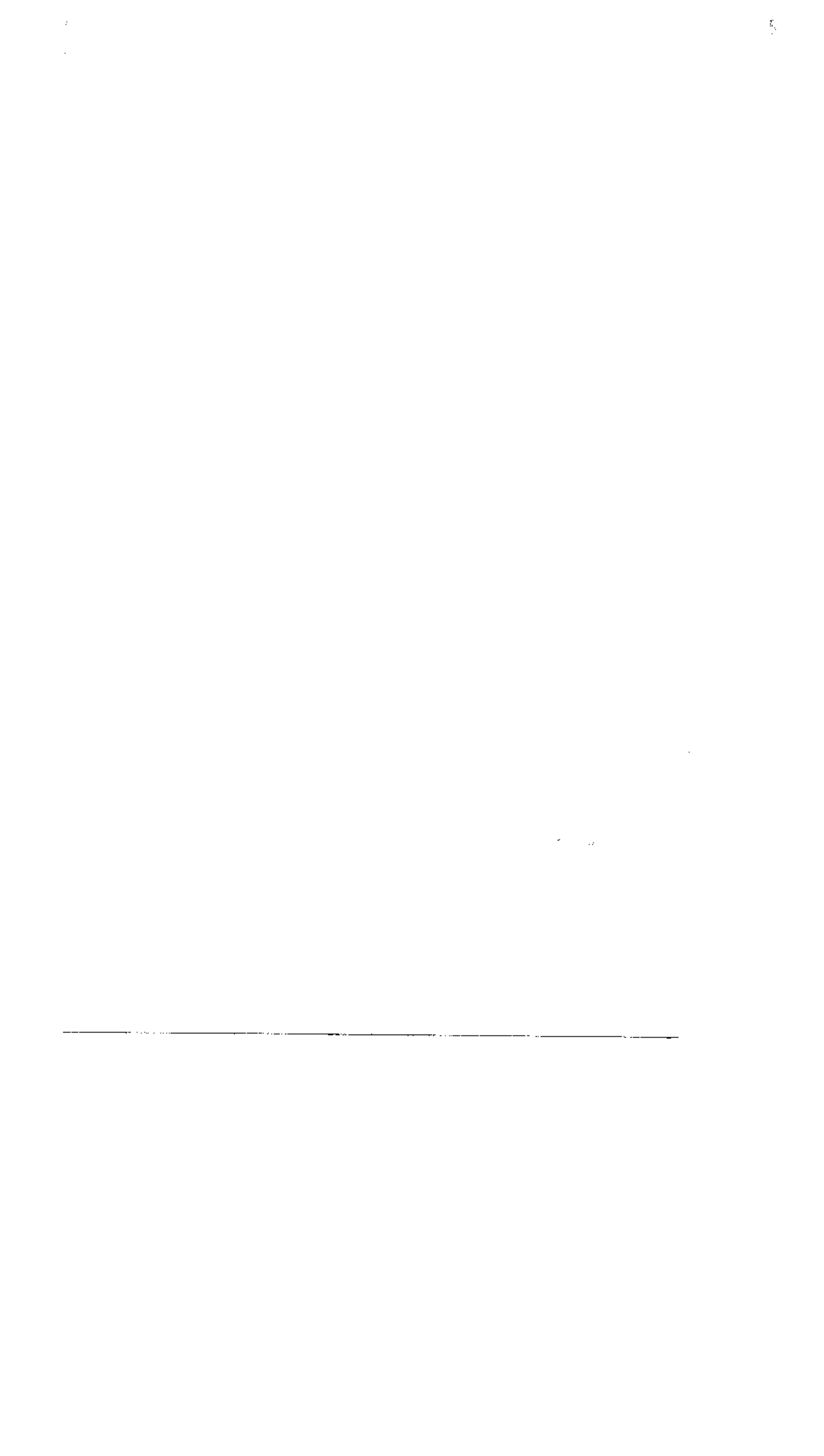
آخر عربة في القطار *

كان القطار يتحرك ببطء، لا يلبث أن يتزايد، وهو يطلق صافرته الداوية، وأنا خلفه، أرفع من سرعتي لألحق به، والجميع يراقبني ويحثني على بذل مزيد من الجهد، ركاب آخر عربة والكمساري الذي لمحني من النافذة، والواقفون على الرصيف، وعامل التحويلة، أخيرًا اقتربتُ، وقفزتُ قفزة قوية، فأصبحتُ داخ العربة، كنت أمسح عرقي، وألتقط أنفاسي، وأشق طريقي، لأنتقل لعربة أخرى، وعندما وصلت للباب الفاصل بين العربتين، وفتحته، رأيت آخر عربة للقطار تندفع بسرعة أمامي، وتغيب في المنحدر، نظرتُ خلفي في دهشة، لم أجد ولا راكبًا واحدًا، كانت العربة فارغة تمامًا، ومتوقفة أيضًا.

---

* (فازت هذه القصة بالمركز الأول في مسابقة ساقية عبد المنعم الصاوي للقصة القصيرة عام ٢٠٠٧) .

فَرس أعرج



كل الذين سألتهم عنك، سواء بشكل مباشر، أو بـــالتلميح والهمز واللمز، أخبروني عن سيرتك البطّالة، وحتى لو لم أكــن قد سألت، واكتفيت بالنظر إلى ملابسك شــديدة الــضيق، وشعرك فاحم السواد المرسل على ظهــرك كأبــد، وملامــح جسدك التي تبدو متحدية لكل أعناق الرجال التي تلف وتدور حتى تخطف نظرة منك، كلما لُحتِ هنــا أو هنـــاك، كنـــت سأتوصل إلى نفس النتيجة!

هذا يعني أن الطريق إليك سهل.. ولا يحتـــاج إلا لدقيقـــة واحدة نتفق خلالها على كل شيء.

من بعيد تبدئين في البزوغ، جمالك ساحق، ونظراتك تصنع حولك هالة من الحضور، لا أقوى على مواجهتـــها طـــويلاً، أتنحّى عن الطريق، فتشدني قوة أكبر مني، لأعود إلى مـــوقعي بنفس السرعة!

أتذكر كل الليالي التي قضيتها مستدعيًا ملامحك، ومتخـــيلاً عنفوانك لحظة الوصول، كل الحكايات التي كنت أتسمعها من

هنا وهناك، حتى أرسم لك صورة شاملة وكلّية، تتسع لكـــل الاحتمالات والأوضاع!

الطريق ضيق وخانق، مليء بالعرق والتـــراب وخطـــوات العابرين، بنايات عتيقة، ونساء تنشرن ثيـــابهن في بلكونـــات واطئة، وشاحنة مياه ثقيلة تمضي مُسرعة فتثير التراب وتهديـــه قسرًا إلى الأنوف والحناجر التي تبدأ في العطس والسعال.

تقتربين أكثر، أشعر بدوخة خفيفة وتنميل في باطن قـــدمي اليسرى، منذ آلاف السنين والرجال الذين يترقبـــون حـــدثًا خطيرًا، تنتابهم لحظات ارتفاع وغياب عن العالم، لحظة اقتراب تدشين الحلم، ويرون في لحظة عابرة نتفًا من شـــريط غـــائم ومتذبذب مما فعلوا من قبل، وما يُنتظر منهم أن يفعلـــوا بعـــد لحظات.

يزداد التنميل، ويجف ريقي، أتلفت حولي لأهـــرب مـــن مواجهة كل هذه التغيرات، ولأرى هل هناك من يـــراقبني، أو يعرف ما يدور في ذهني، ويهيج مشاعري، وأمنح نفسي فسحة نفسية قبل ألا يكون هناك مفرّ من التقدم للأمام.

تحاذينني، فأفتش عن حنجرتي وأحبالي الـــصوتية، أهمـــس بصوت غريب عني وعما كنت أريـــد لـــه أن يكـــون: "لـــو سمحتي..أنا.. حضرتك.. كنت"!!!

تتوقفين فجأة، وتلتفتين نحوي في دهـــشة، ثم في ســـخرية، كنتِ لأول مرة تريني أشغل حيزًا من الفراغ في مواجهتـــك، ترفعين الصوت وتتمايلين في وقفتك بدلال: "حضرتي.. نعم يا أمّور.. عايز إيه من حضرتي؟!"

الشمس التي كانت لم تكتمل، تتـــأجج فجـــأة في عـــيني وحدي، مزيد من التنميل والارتفاع -الذي يـــبدو أنـــه لـــن يتوقف- في درجة حرارتي، أحاول رفع رأسي فوق مـــستوى الطوفان الذي يحاول أن يبتلعني، فيبدأ فصل جديد من لعـــنتي الخاصة جدًا، وأغيب داخل الرؤى والاحتمالات، أقـــرفص في باطن غيمة رمادية لا تلد مطرًا ولا تعرف كيف تُظـــلّ كائنًـــا حيًا، أراك من خلال ضباب يتكاثف ومسافات تتسع ومـــدن وحالات، أفتش عن مفردات أو عبارات ذات قيمة، فلا أجـــد في فمي غير تُرّهات:

- "لا..أبدًا.. أنا.. أصـــل.. يعـــني.. كنـــت بـــسأل.. بسأل..هي الساعة كام؟"

تعاجلينني بضحكة مستهزئة، ممطوطة وفائرة، تثقبني وتغور في اللحم الحي، تلفت إليّ نظر كل من كان يسير في الشارع، وتدفع بالبسمات المتذاكية إلى شفاههم!

لا أعرف ماذا أفعل بعد تجمدي لحظات أمامـــك كـــإرادة ميت، إلا أن أسرع بالهرب مترنحًا، وأنا أشعر بـــسخونة غـــير

عادية في أذنيّ، وطنين ودوخة، وبضع قطرات من العرق تشق جبيني ورقبتي وتبلل روحي ذاتها!

يتسع البحر ويطغى على اليابس، يجرف بيتي في طريق بـــلا عودة، تمتلئ الشوارع بحيتان زرقاء وسرطان بحر ثائر يجذبني من أطراف قميصي، أمتطي فرسي الأعرج، وأحاول مسابقة الماء، يعتليني الموج، وتلطمني السلاحف وسمك التونـــة وذؤابـــات النخيل التي خرجت لتوها من بيض طائر الرخ الـــذي دعوتـــه على العشاء أمس..

فأغرق.

كما كنتُ أخشى!

ربما لم يكن في وسع أحد ممن حولي أن يلاحظ ما حل بي بهذه السرعة!

أنا نفسي لم أفطن لذلك إلا عندما عدتُ للمترل بعد تشييع جنازة صديقي الوحيد، ولاحظت أن البنطلون قد طال بطريقة غريبة عما كان عليه في الصباح!

لم أهتم كثيرًا وقدّرت أن شيئًا غامضًا قد حدث، لا مجـــال لبحثه وتفنيده الآن، فلدي ما يكفي من مشاغل، قمت بـــثني البنطلون ثنيتين من أسفل وانتهى الأمر عند هذا الحد!

....

المرة الثانية التي فطنت فيهـــا إلى أن هنـــاك شـــيئًا غريبًـــا بالفعل...عندما تركتني فتاتي لأنها اكتشفت -فجـــأة!- بعـــد خمس سنوات من الأحلام.. أن هناك من يمكنه أن يدفع سعرًا أعلى في كل هذه الفتنة التي جعلها الله في ابتسامتها!!

عدتُ لمترلي عازمًا على إعدام رســـائلها كلـــها، وإلقـــاء الدباديب والعطور التي تذكرني بها من النافذة، مددتُ يـــدي

لأعلى الدولاب لأخرج "صندوق الكنز" -كما كنتُ أسميه!- الذي يحتوي على كل ما يخصها، ولكني فوجئت أن يـــديّ لا تصلان إليه، واضطررت للاستعانة بكرسي حتى أطوله، وقـــد أدهشني هذا للدرجة التي جعلتني أهرع "للمتر" لأقيس طولي في قلق!

وكانت المفاجأة.. لقد قلّ طولي نحو أربعة ســـنتيمترات.. هذا أمر غير معقول بالمرة!

أحسست بفزع، واتهمت عينيّ بالتـــشوش، وفكـــرتُ أن أذهب لطبيب، لكن التعب ما لبث أن أخذ بزمامي، وأســـلمني لنوم مضطرب، وعندما جاء الصباح، لست أدري لماذا كنـــت قد نسيتُ الأمر برمته!

....

فرصة السفر التي سعيتُ إليها وجاهـــدت لتكـــون مـــن نصيبي..ضاعت بسهولة وبساطة من بين يدي، ولم تترك لي إلا مزيدًا من الأسئلة عن القضاء والقدر، ولا إجابة واحدة يُمكن أن تُشفي غليلي!

وكعادتي وقت الهزيمة.. لم ألبث أن أسلمت عـــيني لنعـــاس خانق، أسلمني بدوره لاستيقاظ خـــشن في الـــصباح، وألمٍ في الحلق وسعالٍ لا ينقطع!

ناديتُ أمي بصوت مشروخ طالبًا منها أن تَلْحَقَــني بــأي دواء، فجاءني صوتُها من المطبخ:

ــ "فيه مضاد حيوي جنبك على الكومودينو".

مددت يدي، ولكني لم أستطع الوصول إليه، حاولت ثانية، فأحسست أن المسافة بيني وبينه أكبر من المعتاد، أزحت الغطاء، وأنا أهم بمغادرة الفراش رغم تعبي، فهالني مــا رأيست، لقــد وجدت قدميّ لا تلمسان حافة الفراش، أنا الذي كنت أمازح أمي من قبل، بدعوى أن السرير "قِصِر عليا"!

شعرت بفزع ورعب.. وتذكرت موضــوع "الــدولاب" الذي لم أطله، فانتفضت من مكاني، وارتديت ملابسي علــى عجل، وخرجت من المترل مهرولاً.

....

أخذ الأمر مني وقتًا طويلاً حتى استجمعتُ نفسي وشرحتُ للطبيب ما حدث لي!

وبدا أنه لا يصدق، ولكني رحتُ أُقسم له، وقلــبي يكــاد يتوقف في كل لحظة، فكشف عليّ، وطمأنني أن كل مــشكلة ولها حل! ثم كتب لي قائمة طويلة من الأدوية والعقاقير أغلبها مضادات للاكتئاب والهلوسة!

وعندما طلبتُ منه قياس طولي، وفعل، كدت أصاب بجلطة في المخ، إذ أن الطول الذي أخبرني به، كان يقل عــن طــولي السابق ثلاثة سنتيمترات أخرى كاملة!!

....

هنا بدأ من حولي يلاحظون ما حل بي!

صحيح أنهم في البداية كانوا يتهمون أعينهم بالخــداع، أو يتصورون أني أسير مُقوّسًا ظهري لمرض ألمّ بي أو شيء من هذا القبيل، مما يعطي الانطباع بقصر قامتي، لكــن مــع الوقــت والتركيز في حالي ومظهري، بدأوا يدركون الحقيقة التي لم يكن يملك أحدهم أي تفسير أو تعليل منطقي لهــا! وبــدلاً مــن الطبيبُ، زرتُ عشرًا وعشرين، في مختلف التخصصات، فكان جهلهم بما يحدث لي، أكبر دليل على أن الأمر لا حل له، وأن ما أواجهه لا يمكن تفسيره بالعقل والمنطق!

....

كأنه لم يكن يكفيني ما يحدث لي، مرة واحــدة، وجــدتُ رئيسي في العمل يحتدّ عليّ، ويهينني بشدة، أثّر ذلك في نفسيتي لأني لم أكن مخطئًا، عندما وصلتُ لمنزلي، عدتُ ألاحظ تقلص طولي، أصابني الاكتئاب وقررت ألا أغادر منزلي مرة أخــرى حتى أفهم ما يحدث لي.

....

استيقظتُ في الفجر على صوت صراخ أمي..

مات أبي..

وفي لحظة واحدة أحسست أن طولي يتقلص.. حتى رأيتُ حافة فراشي في مستوى نظري!

هرعت إلى الباب ومددتُ يدي لأفتحه.. فلم أطُل مزلاجه!

صرخت بأعلى طبقة صوتية أمتلكُها.. فلم يسمعني أحد..

أحسست أن طولي يعاود التقلص بسرعة رهيبة.. أصبحتْ حافة الفراش أعلى من مستوى نظري بكثير..!

انفتح الباب فجأة..

وهرولتْ منه أختي لإطلاعي على الخبر المشئوم..

كانت عملاقة.. وصوتها رهيب..

لم تربي..

رحت أتنطط أمامها.. وأحاول الصعود على الفراش..لكني لم أستطع لعلوه الشاهق..

خرجتْ مسرعة من الحجرة وهي تعتقد أنني لابد قد علمت.. وذهبت لعمل الإجراءات اللازمة..

وأغلقتْ الباب من جديد..

....

بعد فترة.. أحسستُ أني أعاودُ التقلص.. حتى أصبحتُ أملك القدرة على العبور من تحت باب الغرفة..نمتُ على بطني.. وزحفت.. حتى عبرتُ بالكامل..

كان المكان مزدحمًا بالعمالقة!

لا أحد يعرفني..

ولا أعرف أحدا!

أصواهم تنزل إليّ كأنما هي قطع من الحِمم تهوي من أعلى قمة بركان ثائر..وخطواهم.. تزيح الهواء من حولي حتى تكاد تُلصقني في الحائط..

ماذا أفعل؟!

قدم ترتفع.. وقدم تهوي..مهددة حياتي بالانتهاء في أي لحظة!

وأبي.. أريد أن أراه لآخر مرة.. ولكن كيف؟!

المسافات أصبحت شاسعة.. والسير مخاطرة ربما لا يمكن النجاة من آثارها..

أحسست بالانكسار والضآلة..عدتُ لغرفتي بنفس الطريقة.. ودخلت تحت الفراش وأنا أحاول أن أقنع نفسي أن كل هذا حلم ثقيل لن ألبث أن أستيقظ منه.. حتمًا سأستيقظ منه!

....

واستيقظتُ في الصباح..فقط لأتأكد أن شيئًا من حالي لم يتغيّر..

سقف الفراش كأنه سماء عالية وبعيدة، أنظر إليها بذهول.. وضوء الشمس الذي يدخل على استحياء من الشيش الموارب يلسعني ويؤلم عينيّ..

أزحف حتى أعبر من تحت الباب ثانية..

المكان أكثر هدوءًا وإن لم يَقِلَّ زحامُه.. آيات من القـــرآن الكريم تملأ الجنبات..أصوات همهة وبكاء مكتـــوم وعبـــارات حادة تشتبك مع زفرات حارة وطبطبات باليد علـــى ظهـــور ملتفّة بالسواد.. وأعين دامعة وشعور محلولة.. ووجـــوه يبـــدو عليها السهر والإرهاق..

هل انتبهوا لغيابي؟

هل بحثوا عني ويأسوا من العثور عليّ؟

كنت أتحرق شوقًا لرؤية أمي والاطمئنان على حالها.. ومع ذلك لم أحاول لفت انتباه أحد.. هذه محاولة محكـــوم عليهـــا بالفشل!

ورغم كل هؤلاء الذين يزحمـــون بيتنـــا.. أحســـست أني وحيد.. وغريب..

عدتُ أزحف لغرفتي...

وأنا لا أستطيع أن أركّز ذهني على فكرة واحدة عـــن أي شيء في الدنيا..

....

سوف أعيش تحت الفراش..هذا ما هداني إليه تفكيري..

وأتسلل من حين لآخر لأحصل على بعض الطعـــام مـــن المطبخ..القليل سيكيفني دهورًا!

ماذا قدّم لي العالم حتى أحزن على مفارقته؟

الحق أن هذا أفضل لي..فأنا غير مضطر للمشاركة في عاره الآن.. ولا تحمل سخافاته التي لا حد لهـــا...ولا الاســـتماع لأخباره المزعجة التي ربما تتسبب في تقلـــيص حجمـــي مـــرة أخرى!

سوف أطمئن على أمي وأراها وأسمع صوت أخـــتي.. لـــن يتغيّر غير أنهم لن يتمكنوا من رؤيتي وسماعي، ومن يدري ربما أجد وسيلة ذات يوم لكي أخبرهم بوجودي وسري الرهيب..

....

بعد أيام...

عندما استيقظتُ وتسللتُ للمطبخ للحصول على ما آكله..

لاحظتُ ظلامًا غير عادي يكتنف المكان كلــه.. ظلامًــا وحشيًا وسميكًا.. يمكنــك أن تقــبض بأصــابعك عليــه.. وتتحسسه.. فتنفر منه..

ولا صوت يعلو مطلقًا..

عاودني شعور الفزع.. تسللتُ إلى حيثُ حجرة أمــي.. لم تكن هناك.. حجرة أختي.. لا أحد..

قلتُ في نفسي أنهما لابد قد خرجتا لمشوار ما، ولن تلبثا أن تعودا ثانية..

مرّ اليوم بطوله.. ثقيلاً وخانقًا ومليئًا بألف احتمال للــهلع والضياع.. ولم يرجع أحد..

نفس الأمر تكرر في اليوم الثاني.. والثالث.. والرابع...

حتى خمنتُ ما حدث في النهاية... وأنا أكاد افقد الوعي من هول الصدمة..

لقد رحلتْ أمي لقريتها بصحبة أختي..

فبعد موت أبي واختفائي غير المبرر.. لم يعد لديها من تخاف عليه.. أو تبقى من أجله هنا.. أما هناك.. فالأهل والأقــارب والأحباب...

....

يومًا بعد يوم يقل مخزوني من الطعام..

ولكن الغريب أن هذا لم يكن يقلقني..

حتى عندما انقطعتْ المياه والنور تمامًا عن الشقة.. لم أهتز..

و لم أفكر فيما ينتظرني غدًا..

فقط.. كنت أُكثِر من التحديق في صورة عائلية كــبيرة.. تضم أبي وأمي وأختي وأنا في المنتصف.. ونحن نضحك في وجه فلاش التصوير.. ولا ندري ما تخبئه لنا الأيام غدًا...

....

كان هذا قبل أن تنفد آخر قطرة ماء بحوزتي..

ذات مساء...

أُضيئتْ كل أنوار الشقة فجأة..

وسمعتُ صخبًا وضجيجًا.. كاد يهتك طبلتي أذني..

خرجتُ مهرولاً من حجرة الصالون التي كنتُ بها..

فوجدتُ هذا الجمع الغفير من البشر...

يبدو أن أمي قد باعتْ الشقة..كما كنت أخشى!

كبار وصغار وقط أسود ضخم...

أحسستُ بالخطر..

أسرعتُ من جوار الحائط لأتسلل لحجرتي.. بأقصى ما أسعفتني به قوتي...

لكن هذا جذب عيون القط نحوي أكثر..

انفلتَ من صاحبه في لحظة واحدة... وانطلق نحوي مباشرة وعيناه المتسعتان لا ترتفعان عن جسدي الضئيل اليائس المستميت في الفرار....

رأيته فوقي تمامًا.. وأنا محصور بين جدارين..لا مهرب ولا مفر..أنتظر معجزة ما..أنتظر فرجة أمل.. ولا يمكنني أن أصدّق أن هذه نهايتي فعلاً..

يرفع مخالبه عاليًا..

وأنا أشعر بالخدر يسري في جسدي.. حتى لم أعد قادرًا على تحريك ولا عضلة واحدة..

ولا أملك حتى الرغبة في هذا...في حين يتعالى صوت مواء خانق من حولي ويتردد أكثر من مرة في تواصل مثير للأعصاب....

....

بلاد الفرح واللؤلؤ

•

وأنا أضغط بكل قوتي على رقبتــك.. وأغــرس عــينيّ في عينيك، لأصب فيهما جحيمًا سائلاً مــن الحقــد والغــضب والكراهية.. تراكِ بماذا تفكّرين في هذه اللحظة بالذات؟ هــل تتألمين بالقدر الذي يبدو في عينيك؟ لماذا لم تعودي تــصرخين الآن مثلما ملأتِ الدنيا عويلاً عندما بدأتُ في خنقــك؟ هــل خــارت مقاومتك بفعل غياب الأوكسجين عن رئتيك؟

كنت تضحكين عندما لقيتني.. لماذا لم تعودي تــضحكين؟ هذا الازرقاق في وجهك.. ألمجرد أني أقتلك؟ أم أنك تريــدين إرعابي؟ والسؤال الأهم.. لماذا أسأل كل هذه الأسئلة؟!

أضغط أكثر.. أكثر.. مــن أيــن تأتيني كــل هذه القوة الغاشمة؟

ارتخاء جسدك التدريجي.. يُهدئ ثائرتي.. وتوقف مقاومتك النهائي.. يبعث في جسدي قشعريرة فجأة.. لقــد انتــهيتِ..

يبدو هذا واضحًا لأي طفل.. لقد انتهيتِ تمامًا.. أرمقك بنظرة طويلة.. طويلة..أقوم من فوقك.. ثم من على الفراش.. بتؤدة..

أجلس على كرسي في مواجهتك.. ولا أستطيع رفع عيني من عليكِ..

حسنًا.. لقد نفّذت خطتي ببراعة.. شاهدني البواب وأنا أركب سيارتي متوجهًا للشغل، ثم غافلته ودخلت العمارة من الباب الخلفي، ولم يلاحظني.. أبلغتهم في الشغل أني في مأمورية.. وسيارتي تقف بعيدًا عن هنا.. ارتديت" قفازًا" وأنا أقتلك.. فتحت باب الشقة "بطفاشة" لتبدو عليه آثار اقتحام.. ولن أنسى طبعًا أن أسرق بعض الأشياء الثمينة من أي مكان..هذا منتهى العقل وسلامة الذهن.. أنا في قمة صفائي.. نعم.. لا شك في هذا.. أنا مازلت صاحي الذهن تمامًا..ولن أنهار مثلما يحدث في السينما.. لن أنهار..لن أنهار أبدًا..ماذا يتبقى يا تُرى؟

نعم.. تذكرت.. سوف أخرج في هدوء الآن..أتسلل من البيت.. ولا ألبث أن أعود في موعدي المعتاد.. وبالطبع عندما أدخل الشقة..سوف أمثّل أني فوجئت وصدمت وأملأ الدنيا صياحًا وبكاءً.. مع قليلٍ من الهستريا وربما فقدان وعي مرسوم كذلك.. ما رأيك في تخطيطي؟ ترى ماذا كنت ستقولين عن ذكائي الخارق؟ ولن يلبث أن ينتهي كل شيء..

أخيرًا.. سوف ينتهي كل شيء..كل شيء..

أزفر.. أعيد النظر إليك.. وأغوص في أعماق السؤال..هل فعلاً انتهى كل شيء؟

عيناك الشاخصتان.. كم رأيت فيهما من أحلام ووعود؟

يداك الملقاتان في إهمال.. كم ربتا جبهتي.. وهدهدا آلامي؟

هذه الحجرة.. هذا الكرسي.. هذه الطُرقة.. هذه المـــرآة.. هذه الأباجورة.. هذا الكتاب.. كل الأحجار والزوايا..أتلفت في كل مكان..ولكنك الآن لم تعودي تنتمين إلى أي منـــها.. لقد أصبحت مثل وردة مجففة بين صفحات كتاب..أريـــد أن أضحك.. صدقيني أريد أن أضحك ومن قلب قلبي.. ولكني لن أضحك الآن.. لست قاسي القلب إلى هذا الحد.. سوف أأجل الضحك قليلاً.. ربما إلى أن يعلم عشيقك بالأمر.. ربما إلى أن يأتي دوره وأزوره في مترله بكل ود وحنان.. كمـــا كانـــت زيارتي لك اليوم..

أريد أن أرى شكله.. طوله وملامحه وتسريحة شعره ولـــون عيونه ويديه.. خاصة يديه.. اللتين كتبتا لك كل هذا الكـــلام من الحب.. الخطابات الوردية ذات الشريط الأحمر، التي رأيتك خلسة تخبئينها في المكتبة.. في الرف العلوي منـــها.. حيـــثُ تتوقعين أني لم أعد أنظر.. خلف أحد الكتب الـــضخمة.. لم أكن أشك فيك.. هذا حق.. ولكن خاطرًا عابرًا جـــاءني ذات

مرة.. وطاردته وطردته.. لكنه عاد أكثـر إلحاحًـا.. وظـل يراودني.. حتى هزمني.. ماذا يا ترى تخبّئين عني؟؟

وكانت الصدمة.. كل هذا الكلام عن علاقات مكشوفة.. عن أحاسيس مشبوبة.. ومقابلات ومكالمات و.. و.. يـاااااه.. وألف ياه..

والنذل لم يكتب اسمه ولم يكتب اسمك.. لا أنكر أن هـذه حركة ذكاء منه.. لا أنكر هذا لحظة..

وكم تعذّبت.. كم جرّعني الانتظار مـرّ العلقـم.. كـم جننت.. كم هذيت في صحوي.. ومشيت في أثناء نـومي.. شهر كامل.. وأنا أُشوى على نيران جهنم.. وأتقلب.. وتزداد النار كل لحظة تأججًا.. وينضج جلدي بالعذاب.. ويسقط.. فما يلبث أن يطلع لي جلدٌ جديد لشيٍّ جديد.. وأنت.. كمـا عهدتك دائمًا.. أنت هي أنت..تضحكين وتمرحين..لك وجه وقلب وأسلوب طفل.. ولا يبدو أن ثقل الخيانة يمثّل لـك أي شيء.. أنت؟ أنتِ بالذات؟ لا أكاد أصدق! لا يمكن.. ولكن الخطابات.. عليها اللعنة وعليك وعليه وعلى الدنيا بأكملها..

أقوم من مقعدي في عصبية طاغية.... ثم لا ألبث أن أرتمـي عليه في إعياء..

أين كنت تخبئين أيامنا وأنت معه؟ وأيـــن كنـــت تُهـــرّبين وعودنا وأنت في موعده؟ كيف كنت تقصفين رقبة ذكرياتنـــا المشتركة وأنت تعانقين ذكرياته؟ أين كان ريقي وعرق جبيني وضحكي وبكائي يغيب.. وأنت تتمرّغين بين ذراعيه؟

لماذا لا تجيبين؟ هل تعتقدين أن الموت حجة كافية لكـــي لا تجيبي؟ أجيبي.. عليك اللعنة.. أجيبي.. أجيبي..

أفيق لأجد نفسي عند الفراش.. وأنا أهزهزك من كتفيـــك في عنف.. فأتوقف مذهولاً.. وأنا أحدّق في عينيك المفتوحتين الرانيتين نحوي في إصرار..أتركك تسقطين ثانية على الفراش.. وأنا أتراجع بظهري حتى ألتصق بالحائط..

تأسرني عيناك.. كما لو كنتِ حية ما تـــزالين.. تأســـرني عيناكِ..ولا أستطيع تحويل عينيّ عنـــهما..لا أنكـــر لحظـــة أن عطرك ..حتى وإن كنت قد غادرت عالمي.. ما يزال يغلّـــف حبات الروح.. مازلت أحس الندى يتقطر مـــن عيونـــك في قلبي.. مازلت أشعر بك تملئين المكـــان والزمـــان والغائـــب والمشهود.. تراك لازلت حية بعد؟

أرتجف لهذا الخاطر الغريب..أقترب منك في حذر..أدقـــق النظر في خوف..أمد يدي وأضعها على قلبك.. لا.. لا.. أنت **ميتة لا شك.. لا شك أنك ميتة..ميتة.. ميتة..م.. ي.. ت..**

ة..أجلس ثانية.. ولكني لا ألبث أن أقوم في عنــف..وأردد في ذهول: ميتة..أنت ميتة..

أمسك الأباجورة الموضوعة جوار الفراش، وأقذف بها فجأة ناحية المرآة.. فتتهــشمان.. الأبــاجورة والمــرآة ونفــسي معهما..والدنيا.. أتمنى أن تتهشم الدنيا فوق رأســي..ورءوس الجميع.. أنتفض فجأة..ينتابني ألم مسعور..ينخــر في قلــبي.. أمسك صدري وأنا أصرخ..أصرخ.. أصرخ.. أرمي بنفــسي على جسدك الهامد.. أحتضنك في جنون غاشم.. وأنا أبكي في حرقة..لماذا.. لماذا يا حبيبتي.. لماذا؟!!!

البكاء يشق قلبي.. ومن قلبي تطلع وردة مغروسة في الدم.. تتساقط أوراقها رويدًا.. ورقة.. ورقة.. ومع آخر ورقة.. يلفظ القلب كل دقاته.. ويغادر جسدي ويلقي بنفــسه مــن قمــة صدري للأرض.. فيتهشم وسط بقايا أوراق الورد..

لماذا يا حبيبتي.. لماذا؟

وأنا.. وأنت.. أعني.. الحب.. أقصد.. ربما.. آآ..آآ..آآ..

ألهث بشدة..وأشهق في تتابع، حتى أتخيّل روحي تتزلق من حلقي.. أسقط على الأرض.. وأسند رأسي للحــائط..تغــيم المرئيات أمام بصري..

أراك تنهضين من رقدتك..فزعة.. ملهوفة.. تندفعين نحوي وتحضنين رأسي في صدرك.. وتهمسين "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم" وتنـــدفعين لتحـــضري لي كوب ماء..

أراك تسهرين الليل ولا تنامين.. لتـــوقظيني في مواعيـــدي المهمة..

أراك تكتمين أناتك وتعانين صامتة.. حتى لا تعكرين فترات راحتي..

أراك.. تهاجرين إلى كل أساطين الطب في كـــل مكـــان.. لتحققي لي حلم الأبوة رغم معرفتك أن المشكلة عندي..

أراك.. تكتملين..وتتألقين.. تعزفين لي وحدي.. على قمة هذا العالم.. نشيد الوجد...وتقودينني لبلاد الفرح واللؤلؤ..

أراك تكبرين.. وتكبرين.. تتقدمين ناحيتي.. وفي عينيك وفي يديك وفي شفتيك وفي روحك.. نظرة عتاب كـــبيرة جـــدًا.. ومصرّة جدًا..ورغم ذلك.. تمدين يدك الكبيرة كعالم..المتسعة كضحكة بريئة.. تربتين كتفي.. وتهمسين.. أحبك.. أحبك..

وأنا أيضًا أحبك يا حبيبتي وأمي وزوجـــتي.. أحبـــك يـــا وطني.. يا دنسي وطهارتي.. يا خـــوفي وأمـــني.. أحبـــك.. أحبك.. والله العظيم أحبك..

بيد أني لا ألبث أن أراك تقابلينه.. وتضحكين في وجهـــه.. أرى يديك في يديه.. أراك تكلمينـــه عـــني وتـسـضحكين في سخرية.. فأهتز من البكاء.. وأشتعل بـــالألم..وأغـــوص إلى أسفل.. إلى أسفل.. أسفل.. أسفل.. أســـ..

أنتفض من مكاني بغتة..على صوت رنات جـــرس البـــاب المستفز..

أجن.. أنظر حولي في كل مكان..أرتعش.. أهم بالقفز من النافذة.. أتراجع.. اهدأ.. اهدأ.. أنت في بيتك.. اهدأ..تـــدور عيناي في كل مكان..

الصوت اللحوح.. من الأحمق الذي يأتي الآن؟

ماذا أفعل... ماذا أفعل..؟

لن أرد.. هذا عين العقل.. لـــن أرد.. ســـوف ينـــصرف الطارق في أي لحظة.. لن أرد.. أزرع الغرفة جيئة وذهابًا.. لن أرد.. اهدأ.. لازلت محتفظًا بنقاء ذهنك.. لـــن تـــرد.. ولـــن تنهار.. أنا أعرف أنك لن ترد ولن تنهار.. اهدأ.. اهدأ..

الصوت اللحوح.. الـــذي يبـــدو كأنـــه يـــدقّ في أذني مباشرة..لن أرد.. لن أرد..

أجلس..ثم أنهض.. ثم أجلس..ثم رويدًا وببطء..يفتر ثغري عن ابتسامة غريبة.. تواصل الاتساع كل لحظة.. ولماذا لا أرد؟

أتأمل الخاطر في لذة عجيبة.. لماذا لا أرد؟ ما قيمة أي شيء الآن؟

ولا أدري لماذا انتابني فجأة كل هذا الاستهتار.. لماذا قررت فجأة أن أفتح الباب.. وليكن ما يكون..لماذا مشيت نحوه كالمنوم.. وبدون أي تفكير فتحته فجأة.. حتى إن الزائر المجهول انتفض من فرط المفاجأة..

ـــ أنا.. أنا آسفة.. كنت أحسب حضرتك في العمل..أنا.. أنا.. زميلة المدام في العمل و.. هل هي موجودة؟

نعم قتيلة في غرفتي..يا حمقاء.. أتمتم في نفسي وابتسامتي تزداد..من هذه المرأة؟ وماذا تريد؟ أتنحنح لأرتب أفكاري..أجيب في خشونة:

- لقد خرجت.. أي خدمة؟

يبدو على ملامحها اضطراب عظيم.. تهم بالانصراف، إلا أن شيئًا ملحًا خطر لها فجأة، فجعلها تعيد التفكير.. بعد استدارتها للانصراف.. تعود لي بوجهها وتهمس برجاء:

- أرجوك لي أمانة هنا.. أريدها حالاً.. الموضوع لا يحتمل التأخير..

- أي أمانة تعنين؟

- مجرد مجموعة خطابات.. لقد أعطيتها لزوجتك لتحفظهـــا لي.. أنا أعرف أين وضعَتها..

- خطابات.. خطابات تخصك.. هـــل تقـــصدين.. أعـــني خطابات.. بحـــق.. خطابـــات..تعـــنين خطابـــات عاديـــة.. خطابات..خطابات..

- نعم.. نعم.. أنا أعرف مكانها.. اسمح لي فقط بالدخول.. أرجوك مجرد ثوان..

أفسح لها كالمشلول.. كانت تتجه ناحية المكتبـــة.. ناحيـــة الرف العلوي.... وتزيح أحد الكتب الضخمة.. وتلتقط.. نعم تلتقط رزمة من الخطابات الوردية الملفوفة بشريط أحمر!!

صباحُكَ سُكّر

(إلى محمد هشام عبيه.. ذكرى أيام الشقاوة)



ولكن الذي يبدو في عينيكَ الآن مختلف..

نفس النظرة.. لا أنكر ذلك...نفس اتساع العينين في اندهاش.. ونفس البسمة المختبئة بين الجفون.. ولكن.. صدقني.. الذي في عينيكَ الآن مختلف.. يبدو طازجًا جدًا..ودائمًا جدًا..ويبدو أنه إليكَ ينتمي بشدة.. ويبدو أنكَ أخيرًا قد وجدتَ الذي يريحكَ.. والذي لكَ يبقى ويدوم.. أهمس..من كل قلبي.. وأنا أغوص في عينيكَ أكثر: "صباحك سكر"...

....

سنوات العمر التي مضت.. هل تذكرها؟ جمعتنا وفرقتنا..أسعدتنا وأحزنتنا.. أعطتنا وأخذت منا..ولكنها ظلت دائمًا تشدّ الخيط السحريّ الذي ما انفك يربط أقدارنا وأرواحنا للأبد..

هل أخبرتك من قبل كم أني أحبك؟

هل أخبرتك من قبل كم أني أفتقدك؟

أريد أن أحكي لك شيئًا حدث لي ذات يوم.. اليوم الــذي قلتُ لحبيبتي إني أريد السفر لبلاد بعيدة.. من أجل حفنة أموال نبني بها بيتًا يؤوينا.. أتدري ماذا قالت لي؟.. أطرقت قليلاً.. ثم لم تلبث أن رفعت إلي عينين مغسولتين بالدموع.. أطبقت على يدي في قوة..وأحسست أنها ترتجف كعصفور فاجأه البلــل في ليلة عاصفة..وهي همس: "ولكن دفء قربك يؤويني..ويؤوي حبي..ولا أفضّل عليه أبدًا بيتًا من الحجارة والأسمنت!!..أريــد أن أتغطى براحة يدك.. ولا أريد كرة أرضية تلــف بــأمري يكون ثمنها فراقك!!"

....

يا أخي وصديقي..وكنت أريد أن أقول لك مثل ذلــك.. يوم قررتَ السفر واخترت الغربة من أجل حفنة أموال.. أنــا أعرف طموحك وأقدّره.. ولكني أعرف لذة القــرب منــك وطموح الحصول على صداقتك أكثر.. ويوم جئت تــزف إليّ النبأ وعلى وجهك كل هذه الفرحة.. لم أملــك إلا أن أحتــرم قرارك.. وأتلفع بالصمت.. كنت أضحك في وجهــك وأنــا أودعك..ولكني أحبس دموعي في قفص الكبرياء.. أسلم عليك بيد ثابتة قوية.. ولكن ترتجف أعصابها في لوعة..رغمًا عــني.. ورغمًا عنك.. ولا أدري هل سأراك ثانية أم لا..فالغربــة إذا ابتلعت أحدًا، لا تلفظه أبدًا!

....

الليالي أصبحت أطــول.. والنــهارات أصــبحت أثقــل والساعات والدقائق والثواني..

البلاد التي احتضنت أحلامنا.. والأحلام الــتي احتــضنت أرواحنا.. والأرواح التي احتضنت أوقاتنا الذاهبــة والآتيــة.. البشر والمواقف.. كــل هــذا.. كــل هــذا.. أستحــضره بلحظة..أدخله بلحظة.. أولد فيه وأموت ليلاً ونهارًا..

أشياء كثيرة بعد رحيلك تغيّرت.. ربما إلى الأحسن.. ربمــا إلى الأسوأ.. ولكني كنت في شغل عنها.. إذ كان عليّ الآن أن أبدأ ترتيب حياتي من جديد.. وأنت لست فيها..

كان عليّ أن أستيقظ في الصباح.. ولا أتصل بك لأقــول لك كما تعودنا: صباحكِ سكر!

كان عليّ أن أتناول طعام الغداء بمفردي.. ولــيس وســط ضحكنا ونكاتنا وسخريتنا من كل شيء.. حتى من أنفسنا!!

كان عليّ أن أجلس صامتًا أمام التلفاز.. أتابع الأخبار التي تفضلها.. دون تعليقاتك وحماسك.. دون انفعالك المبالغ فيــه دائمًا..ودهشتك الطفولية في مواجهة أنباء الموت والدمار..

كان عليّ أن أضحك وحدي.. وأبكي وحدي.. أحــب وحدي.. وأكره وحدي..

كان عليّ.. وكان عليّ..

....

وأحني رأسي للأيـــام.. علّهـــا تمـــضي.. علّهـــا تأخـــذ دورها..ويأتي عام فيه أُغاث.. وأراك....فيه يحمل ربيع اللقيـــا لقلبي باقة..أو وردة..ويكف الزمن يده عن أحلامنا..

....

ولكنك كنتَ تكتمل.. يسطع بريقك أكثر وأكثر.. أقـــرأ اسمك في الجرائد والمجلات..يتحدث عنك الجميع..وقلبي ينتطط من الفرحــــــة بين ضلوعي.. أشير إلى صورتك وأقول لكل الناس: هذا أخي.. هذا صديق عمري..

وتبدو في الصور المختلفة.. وكأنك سعيد.. هل كنت حقًا سعيدًا؟؟

وتبدو وكأنك تضحك من القلب.. هل كنت حقًا تضحك من القلب؟؟

وأشتاقك أكثر.. وأنتظر عودتك بلهفة أكثر..

ساعات طويلة..أفكر فيك.. تلفـــني الـــذكري بيـــديها.. تأخذني أيامنا..وتحملني معها لبلاد غريبة..أيام الكلية المصنوعة من خلطة السعادة بالدموع.. من مزيج الذهب بالتراب.. من خلاصة العلقم بالشهد.. مني ومنك ومنهم..قـــصص الحـــب الساحرة الصاخبة لدرجة الجنون..والنهايات الفـــاترة البـــاردة

لدرجة الموت.. الأحلام التي تولد مع كل شهيق نتنفسه.. وتموت مع كل زفير.. كلام الليل.. الهامس المتسحب.. في التليفونات العمومية من وراء الآباء والأمهات.. الانتظار في الشوارع المجهولة.. تحت النوافذ المطفأة الأنوار.. في عز البرد وعز الحر من أجل طلة رأس لبنت تحبها بعد أن ينام الأهل والجيران.. و"محمد منير" يصب البنزين على النيران: (لما النسيم.. بيعدّي بين شعرك حبيبتي بسمعه.. بيقول آهات.. وعطورك الهادية اللي كل ما تلمسك.. بتقول آهات..).. ثم يأتي "نزار" ليكمل على إحساسك: "إذا أتى الشتاء.. وحرّكت رياحه ستائري.. أحس يا صديقتي.. بحاجة إلى البكاء.. على ذراعيك.. على دفاتري.. إذا أتى الشتاء.. وانقطعت عندلة العنادلِ.. وأصبحت كل العصافير بلا منازلِ.. يبتدئ النزيف في قلبي وفي أناملي.. كأنما الأمطار في السماء.. تهطل يا صديقتي في داخلي.."

وحلم السفر للخارج.. يحط كعصفور أخضر الريش على أغصان قلوبنا.. وينزع الواقعُ الريشَ.. ويحيل الخضرة سوادًا.. ويكسر كل الأغصان..

والبحث عن عمل في كومة قش.. حتى ينتهي كل القش ولا نجد العمل.. والفزع من الماضي والحاضر والمستقبل..

أيام... وأيام... وأيام...

ولكنك الذي كانت دائمًا يدك في يدي لنجتاز كل هـــذه الغابات.. كل هذه الأمواج.. كل هذه البلاد والمواقف..كنتَ الذي أفزع إليه ويفزع إليَّ.. كنتَ أنا.. وكنتُ أنت..

فأين أنا الآن منك.. وأين أنت؟

بيد أن هذا الشعور الذي تعرفه جيدًا..والذي طالما حدثتك عنه.. ظل دائمًا يصيح بداخلي.. أننا لن نفترق مهمـــا يحمـــل الزمن أجسادنا عبر الطرق الطويلة الملفوفة بـــالظلام.. مهمـــا يستمر تساقط الأيام من نتيجة الحائط.. يومًا وراء يـــوم وراء يوم.. مهما تظل الشمس تشرق ثم تغرب ثم تـــشرق.. لـــن نفترق..

....

كنت أنتظرك.. وأعلم أنك سوف تأتي..ســـوف يـــشرق وجودك الحي الباهر.. سوف أنتشي بربيعك...وأشـــم ورود صحبتك.. سوف أراك ثانية.. لا شك سوف أراك.

....

واليوم..عندما رن جرس التليفون في منزلي.. أحسست أنه أنت.. لا تسلني كيف.. دق قلبي..وارتعشت أطراف أصابعي وأنا أمد يدي للسماعة.. حتى إنها كانت مفاجأة أن والـــدتك هي التي تكلمت..كنت أنتظرك أنت.. كنـــت أفـــتح قلـــبي لصوتك أنت.. ولكن لا يهم.. إنها تطلب مني المجـــيء فـــورًا

لأنك أتيت.. بعد كل هذه الغربة أتيت!! لم أكد أصدق نفسي من الفرحة..أقف وأنا أمسك السماعة..ألصقها بأذني أكثر..أستعيدها الكلام مرارًا.. فأتأكد.. ولكن صوتها لم يعجبني.. كان فيه حزن عربيد.. كان فيه لذع الدمع..كان فيه دنيا من الآلام.. لكني حقيقة لم أبال.. سوف أراك.. فليس لشيء أهمية بعد ذلك..

ولا أدري كيف ارتديت ملابسي على عجل.. كيف ركبت التاكسي المناسب.. ولا كيف وصلت لمنزلك بهذه السرعة..

سوف أراك..أخيرًا..سوف أراك..

كان باب الشقة مفتوحًا.. وأصوات مكتومة تتصاعد..من مكان مجهول..ثمة رائحة عطرية غريبة تغمر المكان.. هذه والدتك ملقاة على كرسي عتيق في الصالة.. تشير بيدها إلى غرفتك.. لم تقم لتحييني كالعادة.. لم تحتضني وتدعو لي..أطرق باب غرفتك مرارًا.. وهي تنظر نحوي وتبتسم في مرارة.. ولا تتكلم..أطرق ثانية..لا أحد يرد..فأدفع الباب دون أن تأذن لي..وأراك..بعد كل هذا العمر..تتشكل حدقة عيني بحدود تكوينك..وأراك.. أنت..حقيقة هو أنت.. ممدًا على الفراش مفتوح العينين.. تحدق ناحيتي..في إصرار..يدق قلبي بسعادة طاغية..ولا أتمالك نفسي.. ألقي بجسدي على صدرك

وأبكي..أبكي بحرقة.. أخيرًا..أخيرًا..عدت.. لقد أوحشتني لدرجة لا يمكن أن تتصورها.. أوحشتني جدًا..ولن أسمح لك ثانية بالغربة..أبدًا..هل تفهم؟..أبدًا..أبدًا..مهما حاولت..ومهما توسلت..

ولكنك لا تتحرك.. لا تمد يديك لتربت شعري كالعادة.. لا تصرخ وتهلل وتشتمني.. كنت ساكنًا تمامًا..ما هذا الأدب؟ أقوم من فوقك.. وأحدق فيك من جديد..لحظة أو لحظتين.. أحدق في رعب..في ذهول.. وقد بدأت أشك في شيء.. شيء حقير.. يتسلل إلى نفسي فيدميها..شيء قاتل يلف أذرعه حول عنقي..ويضغط في قوة.. هل يمكن أن....؟

وأدركت فجأة كل شيء...

يحرقني الوعي المباغت بحقيقتك..فأخرس في ذهول.. ولا أرفع عينيّ من عليك.. كأني لأول مرة أراك.. أتسند على الحائط بذراع واهنة.. أضع يدي على قلبي..لأمنعه من القفز من صدري..أسمع هذه الموسيقى الغامضة..وأشم الرائحة العطرية ثانية.. لا شك تنبعث منك..فأبكي..وأنظر إليك من خلال الدموع...

ولكن الذي يبدو في عينيك الآن مختلف..

نفس النظرة.. لا أنكر ذلك...نفس اتساع العينين في اندهاش.. ونفس البسمة المختبئة بين الجفون.. ولكن..

صدقني.. الذي في عينيـــكَ الآن مختلـــف.. يـــدو طازجًـــا جدًا..ودائمًا جدًا..ويبدو أنه إليك ينتمي بشدة.

ويبدو أنكَ أخيرًا قد وجدتَ الذي يريحكَ.. والذي لـــكَ يبقي ويدوم..

أهمس..من كل قلبي.. وأنا أغـــوص في عينيـــكَ أكثـــر: "صباحك سكر".

---

* فازت هذه القصة في مسابقة (ساقية عبد المنعم الصاوي للقصة القصيرة)

أم أنك لا تدري؟

أنت تدري حتمًا لماذا أستيقظ دائمًا في هذا الوقت المتـأخر من الليل.. وأُخرج صورتك المخبّأة تحت وسادتي من زمـن.. وأجلس رغم الظلام والبرد.. أتلمس ملامح وجهك الباسمـة.. أتنهد..وأرسل بصري عبر المجهول.. وأسرح..

أنت تدري حتمًا.. لماذا تتسحّب حبات الدمع فجـأة -في هذه اللحظات- وتغافل عيني.. وتغرق وجهـك وشـعرك وابتسامتك..

أنت تدري حتمًا سر الأنين المكتوم الذي يـسمعونه كـل يوم.. ويحتارون في تحديد مـصدره..الأنـين الـذي يـشق القلب..ويفتت ذرات الروح..

أنت تدري حتمًا.. وجع البعاد.. ومرارة الوحدة.. وشوق العين للعين..واليد لليد..والروح للروح..

أنت تدري حتمًا..أم أنك لا تدري؟

في كل يوم.. أتلفع بوحدتي وصـمتي..ألجـأ لخطاباتـك وصورك..اليد الوحيدة التي بقيت لي..لأتشبث بها.. ولا همَّ لي

إلا أن أطرح عليك الأسئلة..وأغوص بلا كلل مع علامات الاستفهام الوحشية.. ذوات الأنياب والمخالب... مع أنه لم يحدث أبدًا ولا مرة واحدة أن تلقيت إجابة!

متى تعود؟ ومتى نطوي صحف البعاد والغربة؟

متى تجف الدموع؟ ومتى تنبت الابتسامات على أغصان الروح؟

متى يبدأ ربيعي.. وترفع زهوري رأسها للشمس؟

متى تتعلم عصفورتي تأليف أول تغريدة؟ ومتى تستطيع أجنحة حمامتي البيضاء أن تواجه الريح وتتقدم برغمها؟

هل ستعود حقًا ذات يوم وتلملم ما بقي مني؟ وهل ما بقي مني يكفيك بالفعل؟

هل تعرف هذا الشعور المُرّ بالوحدة.. عندما تصمت الدنيا من حولك بغتة.. وتشعر أنك الوحيد الباقي على قيد الحياة الآن.. لا حس لحيوان أو طائر أو إنسان.. فقط أنت.. أنت وحدك..فتشعر بالخوف.. تشعر بالرهبة..وتمد أذنيك..تُنصت جاهدًا.. علّك تلتقط أي إشارة على وجود حياة من أي نوع.. صوت أزيز حشرة..حفيف ورقة على غصن..أي شيء.. أي شيء على الإطلاق.. ولكنك.. تفشل...!

عندما لا تدري أين أنت.. ولا كم الوقت..ولا ماذا يجري في الدنيا..

عندما يصبح لدقة القلب الهامسة دويٌّ كضربات الطبول الإفريقية.. ولصوت النفس -وهو يدخل ويخرج في عُسر- أزيز عات..!!

عندما تكتشف أن الذي مضى لن يعود بالفعل.. والذي هو آت لا يختلف كثيرًا عما فات.. نفس الظلم والحزن والضياع.. وأن كل الأحلام قد آوت لمضاجعها.. ولم يعد ثمة شيء لتقتات به!

عندما تنتبه فجأة كم أنك مظلوم فعلاً.. من كل الذين عرفتهم في حياتك..وأنه لا سبيل أبدًا لرد هذا الظلم.. مهما حاولتَ..وأنك تضيّع وقتك فقط في انتظار ما لن يأتي أبدًا..

عندما تبكي كالمجنون.. وتمد يديك في يأس، محاولاً الدفاع عن نفسك ضد أعداء مجهولين طاردوك طوال حياتك.. أنت متأكد أنهم متربصون بك في هذه اللحظة بالذات.. للقضاء عليك بلا مراوغة ولا أقنعة هذه المرة.. تمرّغ رأسك على السرير في كل الاتجاهات بلا هدف..تحاول كتم دموعك..أو أنفاسك.. لا فارق.. ثم تهمد حركتك رويدًا.. ويتوقف نشيجك..من تلقاء نفسه..فلم يعد له داع أو معنى.. ولا تلبث أن تبحلق في السقف..وتظهر على شفتيك ابتسامة مستسلمة حزينة.. أنت تدرك تمامًا أنها لن تغادرك أبدًا بعد اليوم..

هل جربت كل هذا من قبل؟ هل أحسسته؟ فلماذا لا تعود؟ وماذا تنتظر؟

العمر يرحل ولا يعود.. والقلب يشيخ يومًا بعد يوم.. وجرح الروح يتسع..ويتسع..هل أخبرك بسر.. أمس جاءني عريس آخر.. من هذا النوع الذي لا يُرفض.. ولهذا رفضته.. لأنه لا يرفض.. هل رأيت كم أني حمقاء.. أهلي لم يفهموا السبب.. لكننا -أنا وأنت- نفهم طبعًا.. أو أنا على الأقل أفهم..لأن ما بيننا.. أقوى من المسافات..أقوى من الأهل والتقاليد والمجتمع.. أقوى مني ومنك.. أقوى من الحياة والموت..وأبعد غورًا في النفس من كل الإغراءات والمتع.. ما بيننا يمتّ بصلة القربى لسرّ الحياة نفسه..ما بيننا هو الحب..

معظم صديقاتي تزوجن..وقلن لي مرارًا أن أنساك.. وأبدأ من جديد.. وقلن لي أيضًا.. إن الأضواء والزغاريد وفستان الفرح.. سوف تنسيني ألف حب كحبك..وإن كل الرجال سواء.. وكنت أضحك إذ أسمع مثل هذا الكلام..وأمنحهم ابتسامة مشفقة من طرف شفتي..

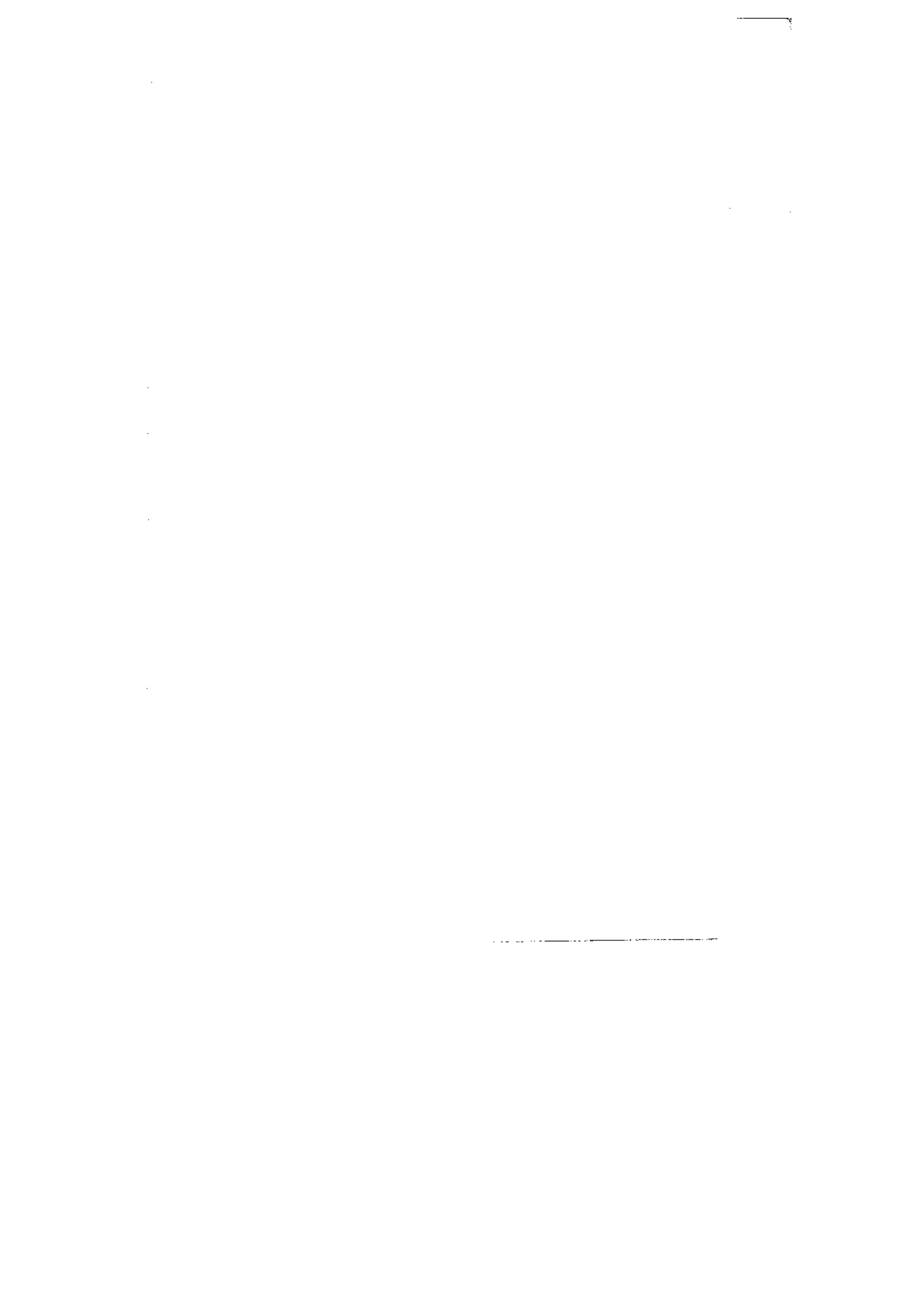
وأعلم أنك ستأتي ذات يوم..وتكشف عني الحُجُب..وتنزعني من عالمهم.. سوف أتجهّز لك.. وأكون في انتظارك..الفستان الأبيض مكشوف الذراعين الذي تحبه..وتسريحة الشعر التي تفضلها..سوف أسمع خفقات حذائك على تراب شارعنا القديم..وأرتجف..وأسمع دقات أناملك الرقيقة على بابي.. وعلى جدران قلبي..وأفرح..سوف أسمع زفرات أنفاسك المشتاقة.. ودقات قلبك المتوترة..وأنت على الطرف الآخر من الباب..لا يفصل بيننا إلا جدار...

شَعْري صار أطول.. وابتسامتي صارت أحلى.. عيوني صارت أجمل..ولوني مازال حليبيًا.. ومازال جانب فمي الأيسر يتقلّص عندما أغضب.. والندبة الصغيرة التي كانت في جانب قدمي اليسرى لم يعد لها أثر واضح كالسابق.. وتعودت أن أشرب اللبن الآن بسبب إلحاح أمي المتواصل.. وتعلّمت الشطرنج الذي تجيده لأهزمك فيه هذه المرة..كل شيء معد كما ترى لاستقبالك.. فمتى تعود؟ متى؟

أنتظرك.. وسوف أظل أنتظرك.. مهما تكن الأيام قد قالت كلمتها.. مهما تكن قد استسلَمتَ لها وخذلتني.. مهما يأخذني العمر ويدحرجني في طرقاته.. أنت لي.. وأنا لك.. والآخرون هواء..

سأنتظرك.. حتى وأنا أعلم أن لقاءنا مستحيل.. وأن التراب الذي أهالوه عليك.. والقبر الذي يضم رفاتك لن يسمحا لك.. ولو بعشر دقائق.. لكي تقول لي "أحبك"..سأنتظرك.. لا تقلق لا تقلق أبدًا..

الغريــب



خطفتني سفينة الفضاء.. وانطلقت..

يرتج جسدي ويتخضخض آلاف المرات..يتفتّت ويتجمّع.. في ظلام أهبط وأولد.. في ظلام أحيا وأندفع..رأسي لم يعد على كتفي..أطرافي تتقلص وتنكمش..شعري يبيّض في فزع..شَعرة.. شَعرة..وقلبي ينتقل بمنتهى الحرية عبر جسدي..حتى يصل لفمي فجأة.. فأتقيؤه..أصرخ وأجن.. أنادي وأتوسل..تبدو نقاط بيضاء صغيرة على المدى.. تندفع نحوي.. أو أندفع نحوها.. لا أدري..أقتحمها..وتقتحمني.. تولد خيوط من النور.. تحاوطني.. وتسربل كل شيء..أستريح فجأة.. يهمد الجسد..تستطيل الأطراف.. تعود الرأس.. ويبدو القلب على استعداد للدق من جديد..

أفتح عيني لأول مرة بصعوبة..بكامل الرؤية المتحفزة القلقة.. وبنصف الوعي المنهك.. أراهم..لأول مرة..أراهم.. العيون المتسعة المشقوقة طوليًا.. الرأس الضخم المستريح على

كتف ضئيل..الأطراف القصيرة التي تبدو هامــدة وغــير ذات نفع.. والأصوات الهامسة التي تبدو للوهلة الأولى بلا معنى..

يذبحني الفزع.. ويخرس لساني.. فلا أقــوى حــتى علــى الصراخ..أحدّق فيهم في ذهول.. فقط أحدق..

أيها الغريب.. أيها الغريب..!

الحروف تلتئم لتعطي معنى ما.. بشكل مراوغ.. تتحــسس الطريق إلى جهازي السمعي..وأستطيع أن أفهــم..أو ربمــا لا أستطيع..

أيها الغريب.. أيها الغريب..!

أمد يدي في وهن..لأتحسس جسدي.. فقط لأكتــشف.. أني مسجى على ما يشبه المنضدة.. ملساء وبــاردة..ضــيقة.. تحتويني بالكاد..طويلة.. حيث ينقطــع بي البــصر.. وحــول معصمي بعض القيود..

أضواء فاضحة تغمرني من أعلى فجأة..أصرخ وأغلق عــينيّ في ألم..وأنا ألوّح بيدي في شكل نصف دائرة..

أيها الغريب.. أيها الغريب..!

لا شك أني أفهم هذا الصوت.. أحسّه يتردد داخل جدران مخي.. أعاود.. بحذر.. فتح عيني.. ولأول مرة.. أفــتح الفــم المرتعد..أين أنا؟؟..وما أكاد أنطق.. حتى يُــرعبني صــوتي.. فأخرس تمامًا..وخوفٌ وحشي.. بِكــرٌ ومُزلــزل.. دامــس

وجارح.. صارخ وبدائي جدًا..يبدو فجأة أمام عيني..ينهشني.. ويغرس إبره الساخنة في أعصاب أعصابي..بلا تعقل ولا رويّة.. أين أنا؟؟..يرتفع الصوت.. ويشتبك في حوار غاضب وحزين.. عال جدًا ومتمرد.. مع خيوط التشوه الوقحة.. والوجوه المحدّقة في نهم مجنون.. وخفقان قلبي عاد يدمدم في هستيريا..

(.. مزقت بطاقتي الشخصية بعد أن تأملت صورتي المبتسمة في سذاجة.. وجواز السفر الذي أعددته ذات يوم ليخرجني من سَمّ الخياط.. فلم يفعل إلا أن كلفني ٦٥ جنيهًا..)

أين أنا؟؟.. بإصرار وأمل..بجشع.. أكرر السؤال..أكرره.. حتى أمل.. حتى أتعب.. ولا أحد من الذين تحلقوا حولي يفتح فمه بكلمة..

(قلت لأمي.. الجنة تحت أقدام أمهات الماضي.. ليس المقصود أبدًا أمهات هذا العصر!)

أين أنا؟؟ يتحول السؤال إلى أسطورة.. إلى قمر بعيد بلا صاروخ يصل إليه..إلى كوكب مهجور بلا بشر يكتشفونه.. إلى حلم لم يحلم به أحد قط..

(قلت لصديقي: رحلت حبيبتي.. مثلما جاءت.. على غير انتظار.. دون أن أفهم لماذا جاءت.. ولا لماذا رحلت..فابتسم في إشفاق..وربت كتفي في حنو..دون أن يلاحظ أني لمحت صورتها الملائكية في جيب قميصه الأنيق..)

أين أنا؟!..أبدأ وأنتهي..أرحل وأعود..أين أنـــا؟!..أصـــل وأضل..أكون ولا أكون.. أيـــن أنـــا؟!..أتوقـــف لحظـــة.. ألهث..ألهث..ولكن لماذا أريد أن أعرف؟ وهل يمثل ذلـــك أي أهمية الآن؟..أطـــرق برأســـي..والصمت قد زحـــف فجـــأة ليغمد سيفه في قلب المكان..وفي قلبي.. الصمت.. الصمت..

أيها الغريب.. أيها الغريب..!

يتقدم مني أحدهم في رويّة.. أمامه العمـــر كلـــه ليـــصل إليّ..ويصل.. يمد يده غريبة الـــشكل نحـــوي..أبحلـــق فيـــه بشدة..أرتجـــف.. أحـــاول الـــتملص مـــن قيـــودي بـــلا جدوى..تنحرف يده.. لتضغط زرًا في المنضدة.. فأتحرر..أنظر نحوه في حذر..ثم أستوي جالسًا في مكاني.. وأنا لا أصدّق ما يحدث..يقول بلا أدنى صوت.. بذلك الحوار العقلي الخالص:

(لماذا ناديتنا؟!)

أصرخ كالمجنون.. بلا تعقل.. بلا روية..: "أنا..؟ وكيـــف ناديتكم؟ ومن أنتم؟ وأين أنا؟ وما الذي يجري؟"..

يوقفني بإشارة حاسمة من يده.. يعود الصوت:

(لماذا ناديتنا أيها الغريب؟!)

لا أنطق بحرف.. فقط أنظر إليه.. وفي قلبـــي رهبـــة..وفي أعصابي خدر.. يردد الصوت:

(..من ينادينا.. نناده..ومن يأتِ إلينا.. لا يعود..)

لم أعد أحتمل كل هذا الغموض.. أثور عليه فجأة..وعلى نفسي.. وعلى الدنيا:.."لا أفهم.. لا أفهم.. من أنتـــم؟..ومن أنا؟..وماذا يحـــدث؟؟ أخبروني قبل أن أجـــن.. أخبروني..."

ولا جواب بالطبع..أمارس مزيدًا من التحـــديق.. أكـــرر أسئلتي..أخبط بيدي على المنضدة.. ولا أحـــد يـــرد..يـــزداد هياجي..أهم بـــالهجوم عليـــه وتوجيـــه لكمـــة عاتيـــة إلى وجهه..فأحس بكل جسدي يطير بغتـــة في الهـــواء..يـــرتطم بالمنضدة في عنف..ويتكوم منهكًا بجوارها.. ألهث..وأئن..وقد بدأ خيط رفيع من الدم يسيل من جانب فمي الأيسر.. أرفـــع إليه بصري في وهن..يعود الصوت الذي بتّ أمقته:

(.. لماذا ناديتنا أيها الغريب؟!)

قررت أن أكذب.."لأنكم أفضل من في الكون".

هل ضحكوا جميعًا في وقت واحد.. أم كان زلزالًا كسحني من مكاني وألقي بي في آخر القاعة المتسعة؟!.. كان الـــصوت الذي يشبه القهقهة مستمرًا.. وأنا أطير من جديد.. وأســـتقر على المنضدة ثانية..وسط قيودي التي أصبحت أكثر متانة.

يحمل النور عصاه ويرحل بغتة كما جاء بغتـــة.. لم أكـــن محظوظًا ساعة أضاء.. ولم أكن محظوظًا ساعة انطفأ.. ورغـــم الظلام.. كنت أراهم ينسحبون الواحد وراء الآخر.. ويغادرون المكان..بلا ضجة تذكر..أنادي عليهم في ضعف..في أمـــل..لم يعد لي إلا هم.. ولكن لا يبدو أنهم يولونني أي اهتمام.. أسمع

صوت أبواب تنغلق.. وأقفال توضع.. لقد تركوني وحدي..أصرخ..ثم أصمت.. ثم أصرخ.. ثم أصمت.. لا أفهم.. لا أفهم.. أتنهد..أحاول تمزيق القيود.. لا أقدر..تخونني الدموع.. وتشق طريقًا يابسًا على وجنتيّ.. فأستسلم.. تحين مني التفاتة عابرة للأعلى.. أحدق في سقف المكان.. فأجده شفافًا.. ومن ورائه.. تبدو النجوم البعيدة اللامعة في الكون الوسيع..وكأنها ترنو إليّ هي الأخرى..بلا كلل.. تسبح في أبدية ولانهائية.. في استسلام وهدوء..

....

كنت أنتظرهم كل يوم..ولكن لم يعد أحد يأتي ليزورني منهم، ولا يبدو أن أحدًا سوف يفعل.. لم أعد أسمع صوتًا أو نفَسًا.. لم أعد ألتقط ما يشبه القهقهة.. ولم يعد يصلني أي حوار عقلي..ولكني برغم ذلك..أحسهم في كل مكان حولي..وأعلم علم اليقين.. أنهم يراقبونني عن كثب.. يعدّون الأنفاس والتنهدات.. يعدّون الأحلام والظنون..ولا يغفلون لحظة عني.. لم أعد أشعر لا بالجوع ولا بالعطش..لا بالراحة ولا بالتعب..لا بالخوف ولا بالأمان..لا بالحب ولا بالكُره.. لم أعد أحلم يومًا بالفرار.. فقط أرنو إلى النجوم البعيدة..البعيدة جدًا.. وأطيل النظر..وأنا أعرف أنها ليست نجومًا حقيقية وإنما هي الضوء الوحيد الباقي من نجوم ماتت واندثرت من زمن..زمن طويل جدًا.. جدًا..

أحلام محرّمة

(١)

قبل أن تخبرني.. أحسستُ!

الليلة فرحها!

ومع ذلك..رفعتُ سماعة الهاتف اللحوح، وسمحتُ لصوتها بالتسلل عبر المسافات، لأسمعها بكل وضوح!

لأمتصها بمسام روحي..

الليلة فرحها!

لكي أغلق في وجهي كل الأبواب الممكنة للأمل..

ولكي أُسجّل هذا التاريخ المجيد في دفتر العمر باللون الأحمر القاني..

وأتخذه بداية التقويم لكل أحداث حياتي!

الليلة فرحها....و......

.... مأتمي!

(٢)

لم أهتم يومًا بالسياسة.. و لم أنظر لأبعد من خطوتي التالية، ولكن عندما رأيتهم يُعدمون "صدام حسين" يوم العيد، ويبثون صورته -في زهوا- عبر شاشات التلفاز، لم أستطع مقاومة الدمعة التي أصرت على الهروب من عيني، و لم أستطع إلا أن أرفع صوتي مع الرافعين، وأنادي بسقوط الطغيان!

اندفعتُ مع الذين اندفعوا، وتدفقوا عبر الشوارع، بعد الصلاة، بلا تخطيط ولا هدف، فحاصرونا، ورفعوا في وجوهنا مدافعهم -هديّة العيد!- ومنعونا من الحركة والكلام، واندفعوا يفتشوننا، ولما صعبت عليَّ نفسي ورفضتُ، وجدت وجه البندقية "الميري" في وجهي، والألم الحارق يسلخ روحي، ويشارك قطرات الدم التي لوثت جلبابي الأبيض في التصاعد، وأنا أهوِي تحت أقدامهم، فيمد أحدهم يده، ويخرج قلبي على طرف "السونكي" ثم يهزهزه في قوة..فتتساقط منه الصور والأحلام والوجوه والذكريات والروائح والطعوم، وتتبعثر من حولي، إلا وجهًا واحدًا، ظل متكمشًا بقلبي، يقلبونه ويخبطون به الحائط، فيتشبث أكثر، يحاولون اقتطاعه بالسكين، فينمو من جديد، يلقونه على الأرض ويدوسون فوقه بأحذيتهم الثقيلة، فينكمش...ثم يصحو ويكبر ويعيش..!

يلقون "الكيروسين" على قلبي.. ويشعلون النيران..

كان الوجه يلملم حاجياته بسرعة.. وقبل أن يركب الطائرة، رفع الموبايل، واتصل بي ليخبرني:

.... الليلة فرحها!

(٣)

كل حبات المطر التي نزلت من السماء على رؤوسنا، شجعتني أكثر، على أن أحتضن أطراف أصابعك، وألف وأدور بك في كل الأماكن التي أحببتُها، كنت أريدك أن تعلمي أني لست وحدي، ثروتي حفنة من الذكريات..

كيف أقولها لكِ؟

كيف أزيح الستار عن أجمل ما أملك من أجلك؟

في لحظة أهم بها، وفي لحظة يسحبني التردد من يدي ويلقي بي أمام قطار الخوف...فيدهسني!

مرة واحدة اختطفتُ لحظة شجاعة.. وقطفتُ ثمرة يقين.. وألقيت بين يديك بحملي:

" أحبك...."

(٤)

اعترضتِ كثيرًا على فكرة السفر.. لكن عندما رأيتِ جواز السفر بين يدي.. بدأتِ تستسلمين.. وتدركين أنه طريق لابد من السير فيه..

كنتُ فرحًا -رغم كل شيء- وأنا أخبرك أن أختي في "الكويت" لن تلبث أن تبعث لي بالإقامة.. وتكون تلك إشارة البدء..

لقد وعَدتني..

احترق شهر من عمرنا.. أتبعه آخر... وآخر...

أتيتُ بالخريطة لأرى موقع "الكويت".. هل هي بعيدة لهذا الدرجة.. فيتأخر بريدها أكثر؟

أرفع الموبايل..وأطلب أختي.. لأجد اللهجة تتغير.. مشاكل.. ظروف.. صبر... نصيب!

أقف في "صيدلية" صباحًا وفي "سوبر ماركت" مساء.. أعد القروش القليلة، وأدخل بها "جمعية" مع صديقات أمي!

يسألني زملائي.. وصاحب الصيدلية والسوبر ماركت.. "متى تنوي؟"

أبتسم..

يمضي عام.. وعام..

أكتب إلى أختي وأقول: "تعبت"..

أجد سطرًا جديدًا يضاف إلى الرسالة من تلقاء نفسه يقول: "الظروف..!"

أتوقف عن الكتابة..

أمسح الرسالة وأغلق الموبايل..

أذهب "للصيدلية" صباحًا و"للسوبر ماركت" مساء وأواظب على أقساط الجمعية..!

....

أمي ترسل في طلبي لأذهب إليها، أخيرا رسالة من أختي على الموبايل الذي نسيته اليوم لأول مرة في البيت..

أهرول، أصطدم برجل كبير في السن، يكاد يسقط، أسنده وأعتذر له، يلوح البيت، تستقبلني أمي على السلم، أفرح، أختطف الهاتف من يدها في لهفة..

أهمس: "أخيرًا"!!

أفتح الرسالة في تعجل..واقرأ "سأعود بعد يومين.. لقد تركتُ العمل.. أختك".

(٥)

الألفا جنيه التي ادخرتها.. دخلت بهما في مشروع صغير مع صديقي..

اشترى حمامًا، وصنع "براجة" وأعد كل شيء..

الأقدام الثقيلة على سطح البيت.. أيقظتني فجرًا..

عساكر وضباط يحملون بنادق ومعاول..

أصوات هديل مشروخ.. وطقطقة خشب يتهاوى.. وصراخ..

وكلمات كبيرة..

الوطن.. إنفلونزا الطيور.. الأمن القومي..

.... صوت يرن في فضاء متسع:

الليلة فرحها!

(٦)

أذهب "للصيدلية" صباحًا و"للسوبر ماركت" مساء وأواظب على أقساط الجمعية..!

حذائي فتح فمه..

وبنطلوني يحتاج لبعض الغرز لمداراة هذا الثقب الذي يتسع..

سوف أقترض من صاحب الصيدلية بعض المال... وأسدده عندما أقبض الجمعية..

لابد من شراء حذاء جديد وبنطلون...

....فالليلة..فرحها!

معـــاتبة

القطة.. صغيرة جدًا ووحيدة جدًا.. تكمّشت إلى جانب جدار متهالك.. تود الاختباء بين أحجاره الصلبة..تبدو جائعة جدًا.. وتبدو خائفة جدًا.. ويبدو أنها لا تعرف أنها جائعة أو خائفة.. صوت مواء رفيع متقطع.. لا تصدق أبدًا أنه يصدر عنها..كيف يستطيع هذا الجسد المتهالك أن يقوم بأي شيء؟ فراء مشعث.. أطراف قصيرة عاجزة.. وعينان.. ربما عمياوان كذلك..بقوة لم أعتدها..أهم بالسير نحوها كالمنوم.. حبيبتي التي لم تلاحظ شيئًا.. تشدني من كم البذلة في قوة..فأنتفض وأفيق..أعود إليها بصحبة ابتسامة محايدة.. فتقول بطفولة:

ـــ "تعبت من المشي؟"

أهز رأسي بلا معنى.. وأبتسم.. الشارع مزدحم وخانق.. أصوات عالية مضطربة.. بشر ساعون في إصرار وعناد.. وسيارات تبدو دائمًا في عجلة من أمرها..تشير بيدها بعيدًا:

ـــ "هانت.. هنوصل الكازينو حالاً..."

أرمق القطة بآخر نظرة أملكها.. خمشات بأظافر كليلة.. حركات واهنة عشوائية.. وارتجافة.. يتخللها نفس المواء المنطفئ المتخاذل..

أنزع بصري من عليها..وأهم بإخبـــار حبيبـــتي.. فتحـــدّ السير..وتهمس:

ـــ " يلا بقى.. أنا جعت.."

فأسير ولا أخبرها.. الكـــازينو كـــبير وفخـــم.. أضـــواء وموسيقى وأحلام وراقصون وغناء صاخب لا ينقطع.. أجلس على الكرســـــي الذي قادنا إليه الجرسون.. فيبـــتلعني في شراهة.. تقول حبيبتي:

ـــ " يلا نرقص.."

تشدني من يدي..فأنهض..وأنخرط بين الجموع.. حبيـــبتي تبدو سعيدة جدًا.. وأنا أحاول أن أجاريها..الإيقـــاع يرتفـــع ويدمدم..والراقصون يسبحون فيه..ولكن الموســيقى تتوقـــف فجأة..تهتز إضاءة المكان كذلك.. ويبدو على الناس الارتبـــاك للحظة.. وهم يُرهفون أسماعهم.. يتعالى صوت مـــواء رفيـــع متقطع..يبدو آتيًا من كل مكان.. أتوقـــف عـــن الـــرقص في دهشة.. وأُرهف السمع مثلهم..يعود المواء ويستمر..ألمح القطة الصغيرة.. تتسنّد على أرجلها في عناء.. وتدخل بين النـــاس.. الجميع يحدقون فيها بخوف ويبتعدون عن طريقها.. كانت آتية نحوي مباشرة..وهي ترمقني بنظرة عاتبة..أتسمّر..أبتلع ريقـــي

في صعوبة ولا أستطيع رفع عيني عنها.. تهزني حبيبتي بقلـــق.. وتهمس:

ــ "مالك.. فيه إيه؟"

أنتفض لحظة.. أحدّق فيها بعينين لا تريان.. أعاود النظر.. فأفيق.. أرمق المكان من حولي.. الكل سادر في رقصه وغنائـــه والموسيقى لا تزال تعزف.. أهمس:

ــ "مفيش.. يمكن تعبان شوية.."

تقول حبيبتي برقة:

ــ "أكيد تعبت من المشي.."

أهز رأسي بالنفي في إصرار.. وأقرر أن أخبرها عن القطة.. يظهر الجرسون أمامنا فجأة ويقدم لنا القائمـــة.. أصـــمت.. أغرس عينيّ في قائمتي.. لا أستطيع أن أقـــرأ شـــيئًا.. القطـــة الصغيرة تتمسح في قدمي بغتة.. فأنتفض.. وأبعد قدمي بحركة عصبية وأنا أنهض وأحدق تحت المائدة.. لا شـــيء.. تنـــهض حبيبتي وهي ترمقني بدهشة وتقول:

ــ " فيه إيه.. إنت مالك النهارده بالظبط؟"

أصمت.. وأحدق في الأرض.. وأنا أعاود الجلوس وســـط نظرات فضولية كثيرة بدأت تراقبني.. تجلس حبيبتي وهي مـــا تزال ترمقني في عجب.. ألمس يدها في رفق.. أهمس:

ـــ "هقول لك.. أصل النهارده..وإحنا ماشيين.."

ثانية يظهر الجرسون ويرمي إلينا نظرات متملقة..

ـــ "أوامر حضراتكم؟"

أترك يد حبيبتي..أرمقه بلا معنى..وأعاود النظر في قائمتي، أقول للجرسون فجأة:

ـــ "عايز سمك.."

تتعجب حبيبتي وهي تقول:

ـــ " لكن إنت ما بتاكلش السمك.."

أهز كتفي بلا معنى وأُصر على طلبي.. فتطلب حبيبتي مثلي.. يبتسم الجرسون.... يرمقنا في خبث.. ويسرع بالابتعاد، أنظر لحبيبتي وعيونها الجميلة القلقة.. أحرّك لساني داخل فمي.. وأنا أقترب برأسي من رأسها.. سوف أخبرها أخيرًا.. يشق صمتنا فجأة صوت مواء رفيع متقطع.. يأتي من جواري.. أتحفّز.. أنهض بحدة وأحدق في المائدة المجاورة بلهفة.. الرجل الأنيق والسيدة الأنيقة الجالسين عليها.. يلقيان إليَّ نظرة مستفهمة ومستاءة.. أتلعثم.. أفرك يدي في عصبية..ألتفت بعيني بعيدًا وأنا أهزّ رأسي علامة اعتذار.. حبيبتي تنهض من مكانها وهي ترمقني في إصرار وغضب:

ــ "أنا مش فاهمة حاجة.. إيه اللي بيحصل بالظبط؟"

أشدّها من يدها لتعاود الجلوس:

ــ "أصل.. أنا.."

يظهر الجرسون إلى جواري بنفس طريقته المباغتة المعتادة.. ويقدّم لنا الطعام.. تبدأ حبيبتي الأكل في صمت.. وهي لا ترفع عينيها إلى عيني أبدًا.. أنظر إلى السمك بحنين عجيب.. أمد يدي.. أمسك قطعة صغيرة منه.. أنظفها بعناية وحذر.. تقفز القطة على مائدتنا فجأة.. من حيثُ لا أدري.. فتقلب الأطباق وأكواب الماء على ملابسي.. وتخطف قطعة السمك من يدي..أتحرك بعصبية.. فينقلب الكرسي بي.. وأسقط على ظهري.. وسط دهشة كل رواد المكان.. أنهض في سرعة وخجل..وأنا أنظّف ما انسكب على ملابسي.. وأفتش بعيني في استماتة عن القطة الصغيرة.. ولا أهتدي.. أخرج من جيبي بعض النقود.. أضعها على المائدة.. وأشد حبيبتي المذهولة من يدها وأغادر المكان.. وهي لا تكاد تنطق.. أشعر بالهواء البارد المنعش يدخلني ويحملني على راحتيه لبعيد.. أتنفّس في عمق.. أقول لحبيبتي:

ــ "الحكاية يا ستي.."

ولكن عيني تصطدمان بعينيه.. وقد برز أمامي فجأة من العدم.. الولد.. صغير جدًا.. ووحيد جدًا.. تكمّش إلى جوار سيارة فخمة.. يود الاختباء في هيكلها..جسده ناحل وثوبه متهرئ.. يبدو جائعًا جدًا.. ويبدو خائفًا جدًا.. ويبدو أنه لا يعرف أنه جائع أو خائف..أتسمر في مكاني لحظة..أرمقه ويرمقني.. ثم أسير إليه وأنا لا أحوّل عيني عن عينيه.. أدس يدي في جيبي.. فينتفض ويداري وجهه بيديه..أخرجها مليئة بالنقود..يُنزل يده قليلاً.. وهو ينظر إليّ في رعب..يبدأ في التراجع بظهره..ويبدو على وشك الفرار.. أربّت كتفه النحيل.. وأمد يدي إليه بالنقود.. يبدو أنه لا يفهم.. أقول له في رقة:

ـــ "خدها.. دي ليك..هات بيها أي حاجة.."

يعاود النظر لحظة بعينين متسعتين.. حساستين..حذرتين.. ثم يبدو أنه رويدًا.. بدأ يفهم.. يمد يده في خوف وأمل.. ثم يقبض على النقود..يعتصرها بين أصابعه في قوة كأنها ستفر.. ويظل يرمقني بنظرته الخرساء..فأمنحه ابتسامة صافية أخرى وألتقط يد حبيبتي المندهشة.. وأواصل السير..كنت أراها جميلة جدًا.. وطيبة جدًا.. وكان لساني يتحرك في انطلاق.. والولد الصغير المسكين..يهرول بكل ما يستطيع من قوة.. ويختفي في الشارع الطويل البعيد..



آخـــر مـــرّة

عندما دقّ الهاتف اليــوم.. دقّ قلبي بإحساس مجهــول.. أمد يدي إليــه.. لم أكــن أتوقع خيرًا.. ولكن.. خاب ظني.. أرفع السماعة.. فيجيئني صــوتُكِ.. نعــم.. صُــوتكِ أنــت بالذات..وهــل خير أروع من ذلــك؟.. لم أنــسه لحظـــة واحدة.. لم يفارق خيالي.. لم أنس طريقتـــك اللطيفـــة في تركيب الحروف.. لم أنس موسيقي ضحكك الصافية.. لم أنس حتى لحظات صمــتك الملآنة بالمعاني.. ولكن.. كيف عرفتِ بوجودي ها هنا.. بعد كــل هذه السنوات؟...ولماذا تطلبيني الآن؟..هل لازال حبي في قلبك..رغم كل شيء؟..أنخلع مــن كل ما حولي..أترك العمــلاء والدوسيهات وعــالمي ثقيــل الظل.. كنت أعود بقوة لنفسي..وأغرق في بحرك...مــن أول "آلو":

ـــ "الشركة الهندسية للمباني؟"

ـــ "نعم...نعم.. يا...يا ...وأنا..أنا..."

ـــ يقاطعني الصوت برقّة..أنا مدام "أحمد صفوت".

وتتدافع الحروف في قوة:

ـــ "كنت أريد تأكيد موعد استلام شقتنا الجديدة"

- "أنــــت مــــاذا؟..أقــــصد...نعــــم...نعــــم يا...فندم...لحَظة...لحظة من فضلك..."

أحدّق في السماعة..بعينين لا تريان.. وقلب واجف مهتز.. أحرّك رأسي لأُفيق.. أبتلــع بقايــا ريقــي الجاف..بقــدرة خرافية..أُفتش عن الكومبيوتر، أفاجأ بــه أمامــــي علــى المكتب.. أجفل..أثبّت نظري عليه لحظــات.. أمــد يــدين مرتعشتين.. أضرب الاسم على الأزرار..وأشاهــد بعــينيّ اسمك..واسم زوجك على الشاشة.. أمد يدين واهنتين..أمسح عن جبيني حبــات العرق.. في بطء..يجمد بصري..فلا أعــود أري شيئًا..فقط..بعــض الخيالات البعيدة لشــاب وفتاة.. في سكــرات الشباب.. يتعاهدان على الحب..وينظــران لغــد بعزم..سنون مــن الــسذاجة والأمنيــات..ثم منظــر دبلــة ذهبية..يلتمع في إصبع اليد اليسرى..وضحكــة ساخــرة وفلاش تصوير.. وبعض الزغاريد والدموع..وبعض الكلمــات التي تقتل ولا تُسيل دمًا.."الحــب ببلاش..لكن الجواز بفلوس"

تتموج الصـــورة..ثم تثبت علـــى منظـــر عـــام لليـــل.. ببرده..ووحشته..وأعقاب سجائر مدهوسة.. وبعض الكتـــب وشرائط الكاسيت ذات الأغاني الحزينـــة..والتجـــوال بـــلا هدف..في كل الأماكن القريبة جدًا من النفس.. والذكـــريات المليئة لآخرها بالهزائـــم والانكسارات.. ثم التمسك بأهـــداب أي وظيفة..والقطارات المستعـــدة دومـــًا للرحيـــل.. ثم لا شيء..لا شيء على الإطـــلاق!!

تختفي الصورة..وتعود.. وتختفي.. وتعود..ويتصاعد صوتكِ فجأة "آلو..آلو"..ينتزعني مـــن جمـــودي..أمـــسك الهـــاتفَ ببـــطء.. ثقيلة جدًا هذه السماعة! أعود من الدنيا البعيدة التي ولّت.. ويعود الصوت.. "آلو.. آلو"..أبتلع ريقي.. أضع يدي على قلبي..لأخفي شـــدة خفقانه..بجهاد القديسين أجيب:

ـــ " نعم ...نعم...يـــا..فنـــدم...الأربعـــاء..الأربعـــاء القادم..العاشرة.. صباحًا..."

ـــ " شكرا "

ـــ "عفوًا..يا...فندم.."

تغلقين الهاتف.. ثانيـــة تـــضيعين.. بينمـــا أظـــل أرمـــق السماعـــة.. بحنين عارم..أتحسسها بأصابع معروقة..وأحـــس فجأة أنني أريد أن أحتضنها..أحتضنها في قـــوة..وأنـــدفع في بكاء لا ينتهي..لا ينتهي.. أبدًا..

السيــــرك



— ١ —

يقـــول أخي... "ده أحسن سيرك في البلد"....ويجرجرني من يدي في إصرار.. يتابع.."أمّا عندهم حتة مهرّج"...فأذهب معه..وأندس في طابور طويل..الليل جالس فوقنا.. والقمـــر في إجازة على ما يبدو..أرفع ياقة قميصي لتصد عني إبـــر الـــبرد المتراشقة... أجاهد...حتى لا أسقط على من أمامي... بفعل الدفعات المتتالية من الخلف.. أحاول أن أبتـــسم مـــن حـــين لآخر..وأقنع نفسي أنها تجربة جديدة على أي حال.

نظفر في النهاية بتذكرتين.. تمزق طرف إحداهما من الـــشد والجذب..ونندفع مع المندفعين، عبر مسارات ملتوية...معتمة.. تطول وتقصر..حتى نجلس أخيرًا تحت القُبـــة العاليـــة لخيمـــة السيرك.. أضواء مبدورة في كـــل مكـــان ...تُغـــشي عـــينيَّ للحظات.. أُغمضهما..أفتحهما..ناس لا أول لها ولا آخـــر.. أصوات عالية متداخلة..عرق..الأرض مغضنة بالقمامة..أزيـــح من تحت قدمي كيس مهملات ممتلئًا فيما يبدو.. قدمي تثقبه.. فيخرج ما به.. ويدوّخ أنوفنا برائحته.. ثمة موسيقى تبـــدأ في الارتفاع.. وشخص أسمر نحيل.. يخرج علينـــا مـــن خلـــف

الستار..وفي يده ميكرفون.. يقول أشياء لا أفهمهـــا.. لكـــن بعض الناس من حولي يضحكون.

يدخل المهرّج..كبيرًا على ما يبدو.. يلطّخ وجهه بـــالألوان الزاعقة..خلفه بعض المـــساعدين..أنتبـــه..الكـــل يتقـــافز.. يصخب..يضحك في صوت مدو..فيما يقهقه كل من حولي.. أمسح عرقي.. رغم برودة الجو..أتابعهم.. يخبطون أيديهم على أرجلــــهم..مـــــن شــــدة النـــشوة.. يـــــصفقون.. يصفّرون..ألتفت..لأحد أخي مثلهم...ولا أنجح في أن أفعلها وأضحك!

الذي بدأ يثيرني بالفعل..عندما جلس المهرج على كرســـي عتيق..وأمسك في يده جريدة..وارتدى نظارته..وراح يقـــرأ أخبار الحوادث..لحظة.. يتثاءب المهرج..يضحك واحد مـــن الجمهور بلا سبب..يسقط شيء ما ثقيل خلف الستار..تمـــوء قطة بصوت متقطع.. في مكان ما..تسقط بضع قطرات مـــن المطر في الخارج..يُغلق المهرج إحدى عينيـــه..ثم الأخـــرى.. وعندما يحاولون إيقاظه.. يرفرف شـــيء ثقيـــل بجناحيـــه في المكان.. أسمعه..ولا يرونه..يقطع خيط الضوء المركّـــز علـــى المهرج من أعلى للحظة.. ثم يعود الـــضوء أكثـــر قـــوة..ولا يستيقظ.

ـ ٢ ـ

لم أستطع الحصول على تذاكر السينما التي أعدها لها منـــذ أسبوعين..أقول لصديقتي..(الطابور كان طويل قـــوي ولمـــا وصلت..الراحل قال لي: "شطّبنا يا أخينا")..ثم أبتلع لـــساني.. ولا أخبرها أنه سكب فنجان قهوته السوداء على ما تبقّي أمامه من تذاكر.. وألقى في وجه زميله بسُبة فاحشة وهـــو يـــرمقني بنظرة لم أفهمها.. لكن لا يبدو على وجههـــا أنهـــا تهـــتم.. فقط...تغرز واحدة من نظراتها الساخرة في وجهي.. تـــوليني ظهرها.. وقبل أن تمضي..تلوّح بتذكرتين في يدها بلا مبالاة.. أصـــيح.. "مـــين اللـــي جابهملـــك؟ ...فتحـــاوبني بضحكة...حادة... ممتدة... تسقط من يدي... وتتهـــشم على الأرض... قبل أن ألتقطها.

ـ ٣ ـ

في ورقة امتحان التاريخ... أرسم شجرة خضراء عالية... أرسم عليها عصافير وغربانًا وثعابين وحدادي وعقبانًا..أرســـم سورًا كبيرًا من الورد..أرسم ولدًا صغيرًا باسمًا ينظر للسماء... يلوّح بيده لسحابة تعاكسه...وأرسم رجلاً سمينًا ...يقف إلى جوار "بلدوزر" ضخم في طرف الصفحة... يفرغ الحبر مـــن القلم...أمد يدي لأحضر غيره مـــن جـــاري...يـــرفض.. ويشتمني.."يا خويا اتلهي...هو أنا فاضيلك؟"

أسمع زئير محرك سيارة ...ألتفت في حدة ...الرجل السمين يغافلني.. يقفز في كابينة القيادة..وينطلق فجأة بالبلدوزر..أضع المسطرة أمامه في سرعة.. يهشمها ويمضي في طريقه..يجتاح السور حول الشجرة..تعبّق أنفي رائحة الورد المذبوح.. ثم الولد الصغير..لم يجد الفرصة ليصرخ..ثم الشجرة..صوت سقوطها كان مدوّيًا..متداخلاً مع صوت الغربان والعصافير والحدادي والعقبان..لا أستطيع منعه...يواصل الطريق..يخرج من نهاية الصفحة.. ويهرب!

أنتبه فجأة لأسئلة الامتحان تشدني من كُمي وترمقني بغلّ..عندما تغافلني دمعة..وتسقط مكرمشة جزءًا من ورقة الأسئلة.. أقلب الصفحة..أكتب في أعلاها "السؤال الأو..."...أُحس صخبًا.. فيما ينهض كل من حولي بغتة..أسمع صوت حذاء ثقيل يرتطم بالأرض.. يد خشنة تمتد.. يشد المراقب ورقتي.. يصفعني صوت.."انتهى الوقت".

— ٤ —

صدمتني سيارة مسرعة وأنا أعبر الطريق.. لم أهتم كثيرًا بالتقاط نمرتها..أمور مثل هذه تحدث كثيرًا.. الناس يلتفون حولي.. أحدهم يتنازل عن جريدته..ويغطي بها وجهي الملطخ بالدماء..رغم أنها جريدة هذا الصباح، همسٌ يتسلق أكتاف الواقفين حولي..."يا خسارة... ده باين عليه ابن حلال".. لو

كنت حيًا.. لابتسمت.. هذه أول كلمة إطـراء أسمعهـا في حياتي!

وهج يتكشف لعينيّ من بعيد..في شكل منتظم..في ظلمـة ونور يتعاقبان.. أبدأ الترقي إليه.. ليس كمثله شيء.. يقترب.. ويبتعد.. تبهر عيني آلاف الألوان.. لحظات.. وأنا على بُعـد كاف.. ألمح المدينة الغارقة في لهاثها.. البشر والأمكنة.. أمي.. تعد وجبة العشاء للإخوة..ترمق الساعة..وتملأ كاسات حنقها عليّ.. كانت تنتظرني حفلة سـاهرة علـى مـا يبـدو..أبي يتثاءب..يتقلّب على فراشه.. ولا يلتفت لصوت أمـي وهـي تناديه.. ليضرب الولد الذي كسر المزهرية.. لأعلى.. لأعلى.. ومكتـبتي المتخمـة بكتـب أقـسمت أن أقرأهـا يومًـا.. لأعلى...صـديقتي في الـسينما.. عنـدما انطفـأت كـل الأنوار..بجوارها أخي.. تغرق معه في سـعير القـبلات... لا تموت فيـه ولا تحيـا..أواصـل الـصعود.. ألمـح المهـرّج العجوز..يصعد مثلي.. لكنه ما يزال يلـهث..ولا يفعلـها في سهولة.. أنحدر إليه ...لحظة... آخـذ بيـده... ونـصعد سويًا...الـومض يتكـاثف..صـوت موسـيقي الـسيرك يعاودنا..لكنه أكثر هدوءًا وانتظامًا هذه المرة... خفق أجنحة عديدة يجاورنا..وعيوننا تمتلئ بلمعة قطرات المطـر الـصاخب الساري حولنا.. دون أن يلامسنا.

مجــرَّد قِطّ!

عندما خرجتُ للسطح اليوم لأدخن سيجارة.. رأيت هــذا القط الضخم ذا العين الواحدة.. يرمقني بتركيز ويتابع حركتي!

أحسستُ بالغيظ.. واهتاجتْ مشاعري فورًا.. فألقيتُ عليه السيجارة المشتعلة..

رأيتُها ترتطم به.. ولمحتُ آثارها في جلده.. إلا أنه لم يحرّك شعرة من جسده!

ازداد غيظي.. وقررت أن أطارده..

أتقدم منه.. يُفلت.. أعاود الكَــرّة.. بمقــشة في يــدي.. وإصرار في عيني على تلقينه درسًا لا ينساه..أُغلق باب السطح بصوت مزعج..أحاوره..أدنو منــه... ويتباعــد.. يقفــز.. ويختبئ.. يظهر.. ويموء.. ويفرد مخالبــه في وجهــي.. حــتى أحصره في الزاوية.. لا مهرب ولا مفر..

يرفع مخالبه أكثر.. يعاود المواء..

أقترب...

شبح ابتسامة يغزو فمي في انتصار.. وعيناي ترقبان مراوغته الأخيرة اليائسة..

يتوقف فجأة عن الحركة.. ويـرمقني بعينـه الواحـدة في تركيز.. فأتوقف أنا الآخر..

يتقدم مني فجأة.. وقد قرر ألا يكون فريسة سهلة المنال..

أشعر بدهشة وخوف بدائي..أتراجع لحظة.. ثم أتماسـك.. وأتقدم مرة واحدة..وأنا أهمس:"ده مجرد قط!".. أرفع يـدي عاليًا..أهوي بالمقشة الثقيلة بكل ما أملك مـن قسوة علـى رأسه....

أرفع يدي بسرعة محمومة لأعاود الكرّة..

لكن..

لم يكن القط هناك..

أفرك عينيّ وأعيد التحديق.. أتلفت حولي.. وأنظر..

لا أثر...!!

لحظات صمت.. فزع.. أفيق بعدها فجـأة.. أنـتفض.. وأسرع بمغادرة السطح كأني أفرّ.. وصوت مواء خانق.. حاد ورفيع.. يتردد أكثر من مرة..كأنه مقيم داخل أذني.. ولا يبدو أن له نهاية!

....

أول يوم لي في العمل الذي حلمتُ به سنينًا..

حتى الآن لا أصدق الملابسات التي تتابعتْ حتى أوصلتني لهذا المكان..

بذلة وربطة عنق ومنديل في الجيب الأعلى للجاكت.. وابتسامة متفائلة.. ونغمة محببة.. أدندن بها.. وأنا أطرق الباب بأدب مبالغ فيه على سيادة المدير..

ـ "ادخل.."

ـ "صباح الخير يا أفندم.. أنا جيت في المعاد اللي سيادتك حددته.."

هل سمعتُ صوت ضحكة ساخرة؟!

لاشك أنه وهم.. وخوف تقليدي من مواجهة تحقق الأحلام!

ـ "معلش يا أستاذ.. مش هينفع تشتغل معانا"

يبدو أن الضحكة الساخرة لم تكن وهمًا!

ـ "بس يا أفندم.. من أسبوع واحد بس جيت.. وسيادتك وافقت.. وبعدين.."

ـ "الظروف اتغيرت يا أستاذ.. واتفضل لو سمحت عشان ورانا شغل.."

هذه المرة أسمع صوت صفعة حـــادة.. أتراجـــع في قـــوة للخلف.. حتى أفلت منها.. أجد الباب خلفـــي.. أفتحـــه.. وأخرج.

....

ـــ "أبو خطيبتك جه النهارده وجاب لك علبـــة الـــشبكة بتاعتك.. خير فيه إيه؟"

لم أكد أدير المفتاح وأدخل البيت.. حتى وجد هذا الخـــبر طريقه إلى أذني.. ثم قلبي..فاعتصره..

ـــ "بتقولي إيه يا ماما؟... ليه؟... حصل إيه؟"

ـــ "ما أعرفش والله يا ابني.. اتصل بيها واسألها".

من شدة الذهول.. أُخطأ مرات في طلب نمرتها.. أخـــيرًا.. يأتيني صوتها:

ـــ "ألو؟"

ـــ "خير يا سارة.. فيه إيه؟... إيه اللي حصل؟"

ـــ "مفيش حاجة.. بس كل شيء قسمة ونصيب.."

ـــ "فجأة كده.. أنا زعلتك في حاجة طيب؟! ده إحنا لسه امبارح كنا.."

كليك...

صفير متقطع من الطرف الآخر..

....

حركة خافتة.. ولكن نومي القلق لم يُفلتها.. واستخدَمَهَا لكي ينقشع عن عقلي فورًا..

أهب من السرير.. وأنا ألقي بسمعي ليتسقّط مزيدًا من الأصوات..

من الصالة.. لاشك أنه من الصالة..

أفتح باب حجرتي في حذر..

الظلام.. والتوجس.. وصوت الأنفاس الخافت..

فجأة.. أضغط مفتاح الإضاءة..

لا أحد..

ألفُّ أرجاء الشقة..

لا أحد..

أتنهد في ارتياح..

أدق باب حجرة والدتي:

ـــ "فيه إيه يا ابني؟... إيه اللي مصحيك دلوقتي"

ـــ "مفيش يا ماما.. بطمن عليكي بس"

صوت أقدامها.. ووجهها الحبيب.. وشعاع نور يتسلل من فرجة بابها الذي انفتح في وجهي:

ــ "اطمن يا حبيبي.. أنا بخير"

تتسع فرجة الباب أكثر.. ألمــح هــذه الفوضــى أســفل الدولاب.. أدخل الحجرة مهرولًا:

ــ "إيه ده يا ماما؟"

تتبعني..ثم تتسمّر في مكانها.. وهي تشير إلى العلبة المعدنيــة الملقاة في ركن وهي تصرخ:

ــ "يا نهار أبيض.. اتسرقنا.. اتسرقنا يا ابــني.. تحويــشة عمرك راحت يا ضنايا"

....

السطح.. والسيجارة..

هذا كل ما تبقى لي..

ماذا يحدث لي؟

أين الخطأ؟

فجأة.. ألمحه.. نفس القط الذي اختفى..

وهل يمكن أن أنساه؟

أُحس بالذهول..لكن لم يكن لدي طاقة هــذه المــرة ولا شجاعة كافية لأطارده..

أُلقي عليه نظرة طويلة.. أزدرد لعابي.. وأتراجع بظهــري ناحية الباب..

لا أدري لماذا أحس أنه من الضروري أن أفرّ!

ينغلق باب السطح في عنف فجأة.. قبل أن أصل إليه..

أشعر بالهلع.. فألتصق بالباب المغلق.. ولا أستطيع نزع عيني من على عين القط!

يبدو أكبر حجمًا من السابق.. وجسده أشد سوادًا..

تضيء عيناه..

"عايز مني إيه؟!".. أصرخ..

أدق على باب السطح بعنف.. وأرفع صوتي في كل لحظة..

يتقدّم مني في تؤدة.. كأن لديه الوقت كله ليفعل ما ينـــوي فعله..

"عايز مني إيه؟!".. أصرخ..

أواصل الدق والنداء..

ويواصل التقدم..

يموء..

"عايز مني إيه؟!"

أرى فجأة كتلًا سوداء أخرى تظهر من نقطة لم أتبينـــها.. أكبر مجموعة من القطط السوداء أراها في حياتي..

يحيطون بالقط الأعور.. ويتقدمون معه..

أشعر أني في كابوس.. أخبط رأسي بيدي في قوة لأفيق..

كابوس.. لاشك أنه كابوس..

يموءون معًا.. في صـــوت واحـــد.. ويتحركـــون بـــنفس الخطوة..

يقتربون..

يستبد بي الدوار.. أضع يدي على قلبي.. فلا أحـــس لـــه نبضًا.. أشعر بالمرئيات تهتز أمام عيني...

عايزين مني .. إيـــــه...

"لاا"

السقوط...والارتطام العنيف بالأرض..

....

أفتح عيني فجأة.. ضوء قوي ومبهر..

صوت همهمة خافت.. يعلو..

يد بشرية تبدأ رحلتها من جسد صاحبها.. وتقترب مـــن رأسي..

أمي..؟!

إنها يد أمي..

أين أنا؟

ماذا حدث...

آه.. الصداع اللعين..

أمد يدي لأتحسس رأسي.. فأجد هذه الضمادة الضخمة تحيط بها..!

ألتفتُ إلى أمي في ضعف:

ــ "إيه اللي حصل؟"

ــ "لما اتأخرت فوق السطح.. طلعت لك.. لقيت الباب مقفول.. ناديت عمك أحمد.. كسر الباب.. لقيناك واقع على الأرض.. وراسك بتترف..."

أستعيد ذاكرتي دفعة واحدة.. فانتفض جالسًا على الفراش.. وأصرخ:

ــ "والقطط.. فين القطط؟"

ــ "قطط إيه بس يا ابني.. سلامتك!"

ــ "السطح كان مليان قطط.. وكانوا عايزين يموتوني.. راحت فين القطط.. راحت فين؟!"

ــ "لا حول ولا قوة إلا بالله.. بس اهدى كده يا ابني.. اهدى الله لا يسيئك.. السطح كان فاضي ومفيهوش غيرك"

تربت رأسي في حنان.. وتقبلني.. وتوصيني بالراحة..

تدثرني بالأغطية.. وتطفئ النور.. ثم تغلق الباب.. وتخرج.

....

وفي الظلام...

كنت أراه..

وأشعر به..

تلتمع عينه الوحيدة نفس الالتماعة..

ويحيط به رفاقه..

يتقدمون مني في تؤدة..

في صمت..

في إصرار....

....

العصفور

لـــم أستمع إلى كلمة واحدة..من كل الذي ظلوا يصبّونه في أذني.. طوال الليل..وقررت أن أذهب..ما الذي يفهمونـــه هم عن أي شيء؟..كان الجَمع كبيرًا جدًا.. والأصوات عالية متداخلة إلى حد لا يُصدق..والأضواء والزغاريـــد والطلقـــات النارية التي ظلت تخترق قبة الـــسماء في تـــصميم..ســـاعَدَني جسدي النحيل على التسلل وسطهم.. لم يلتفت لي أحـــد.. كنت الآن أكثر قربًا من أي وقت مضى، وأستطيع أن أرى ما جئت خصيصًا لأراه..عينيها..فقط عينيها...وسط كل هـــذا الصخب.. كان يهمني جدًا.. أن أتطلع إلى عينيهـــا..فهمـــا وحدهما يحملان السر..

(في عينيك كانت المدن تغتسل من ترابها وترتدي فـــساتين زفافها..وتغني.. من أجلي وحدي)

أتوجّه بكل كياني إليها.. أمسح زجاج نظارتي بعناية..أضع يدي على قلبي..وأنظر في لهفة.. لكني...لا أبصر عينيها...ولا أستطيع أن أرى..سوى حفرتين قاتمتين مكان العينين!!

ينطبق فمي في دهشة..أفرك عينيّ..أفتحهما على اتساعهما..أُثبِّت النظارة في دقة..أعاود النظر من جديد.. الوجه والشعر والأنف وبقية الملامح الغائمة في الزينة المفتعلة...ولكن...لا عينان...لا عينان على الإطلاق!!

(في عينيكِ..أختبئ من كل مالا أفهمه ولا أحبه)

وتلمحني -كيف بلا عينين؟-..فتتجمّد لحظة..ثم تخلّص يدها من ذراعه..وتشير لي بحركة لا معنى لها على الإطلاق.. وتضحك في فرح.. فأرى -هذه المرة- خفافيش سوداء صغيرة جدًا..تخرج مندفعة من فمها..وتصطدم بوجهي وحدي.. أتراجع في خوف.. وأنا أدافع الخفافيش بيدي..وأصرخ.. وأستنجد بمن حولي.. ولكن..لا يبدو أن أحدًا يهتم..أو يلاحظ.. الكل سادر في غنائه وصخبه.. أتراجع أكثر.. وأنا أحس أنه لم يعد لي مكان ها هنا..

أعطيهم ظهري وأرحل، أتمشّى على"الكورنيش".. تشدني رائحة البحر دائمًا.. كأنما بألف ذراع..أرمق حوار الموج والبشر والعواميد الصاحية أبدًا.. تائهًا..أصطدم بالطفل الصغير الذي يلعب بقطعة الصلصال وحده..يبتسم في وجهي..ويعطيني قطعته.. "سوف أصنع لك شيئًا جميلاً مثلك"..أمسك القطعة..أعجن الصلصال.. أصنع عصفورًا بديع الريش..يضحك الطفل ويمد يده ليأخذه..

يسقط العصفور مني.. لكنه لا يصل إلى الأرض أبدًا..فجأة..يفرد جناحيه..ويطير.. يبكي الطفل..ويدبدب برجليه على الرصيف..يشدني من يدي كي ألحقه..

أجري خلف العصفور.. ألهث.. أنادي عليه.. يرمقني من أعلى.. يتوقف لحظة..ثم يقرر العودة إليّ.. يحط على كتفي في استكانة.. لا أكاد أصدق.. أمد يدي في حذر.. أحاول الإمساك به في حرص.. ولكنه يرتفع من جديد للسماء..وقد تشبثت مخالبه الدقيقة بقميصي.. فبدأتُ -لدهشتي وذعري- أرتفع معه.. لأعلى.. لأعلى.. "اتركني أيها اللعين"..ولكن العصفور – على الرغم من مقاومتي وذهولي- ظل يحملني..ويرتفع بي.. طبقة بعد طبقة..وسترًا بعد ستر..لأعلى..لأعلى..حتى وجدت نفسي أهوي فجأة..بكل ثقلي نحو الأرض..وأنا أصرخ وأنادي..وأهذي..وأضرب الهواء بذراعيّ في يأس..

وفي آخر لحظات السقوط.. بعد أن بُح صوتي..وارتخت يداي..أدركت أنني أسقط بالضبط.. فوق المكان الذي اجتمعوا فيه..يغنّون ويضحكون..وأدركت كذلك..أني -في قرارة نفسي- أضحك الآن مثلهم.. وربما أكثر..فقد فهمت فجأة..أن سقوطي على هذا النحو المدوي.. أمام عيونهم جميعًا.. سوف يُفسد عليهم -بكل تأكيد- ليلتهم.

بعد الغـــروب

— ١ —

هــذه آخر مرة أسلّم عليها.. قبل أن تبلعنا الأيام..أنظر إلى بوابة الجامعة المغلــقة..والأصـــــدقاء المبتــسمين..في وجــه فلاشات التصوير..والصخب والــضحــكات.. وجماعــات الرفـــــاق التي تبتعد..أقول لها.."فلنرحل دون سلام حـــتى يظل هناك دائمًا شيء ناقص..يطالبنا أن نستكمله..حتى يظــل حنين يــديّ إلى يديــك جارفًا"..همــس "ولكــني أريــد حضور يديـــك الأســر ليعيني علــى الغيــاب"..أطــرق لحظة.. ثم أرفع إليها عينين مبتسمتين.. أمد لها يــدي.. تمــد يدها.. تتعانقان.. كانت توليني ظهــرها وهي تقول.."أتمــنى لك الخير"..فأهمس.. "أتمنى لك الخير".. ولا أرفع عــينيّ مــن عليــها.. حتى يغيب الطيف.. وتخفــت الرائحــة..ويتبــدد الــصــوت..وتنعطــف في نهايــة الــشارع الطويـــل.. تنعطف..وتضيع..

ـ ٢ ـ

يتأبط ذراعي في فخر.. وهو يدخل الحفل.. يشير بفرحة إلى رفاقه:

ـ "جئتكم بأبي كما وعدت"..

ـ "أهلاً "عمو"..هل لابد أن نقيم حفل تخرج..كلما أردنا رؤيتك؟"

ـ "إنها المشاغل يا أبنائي".

أحس بالعينين اللتين تخترقان مؤخرة عنقي..ألتفت في حدة...معقول!! أنت؟! أنت بالذات..؟! تتقدمك البسمة الرائقة.. والرائحة التي لم أنسها.. والذكريات الصاحية أبدًا... يا رعشة القلب الكهل.. واختلاجة المشاعر...(العين في العين.. القلب واجف مهتز..العقل متردد حائر.. هل تمتد اليد لليد؟...وهل تلتقي الكلمات بالكلمات؟) أتقدم منها في بطء..وقلبي يركض بين ضلوعي.. أمد يدي..تمد يدها..أتعلق بها.. ولا نقوى على النطق.. (ولا أستطيع إلا أن أبتسم..ولا تستطيع إلا أن تبتسم..وبعد الابتسامة.. تخرج الكلمات خافتة.. متقطعة..تسأل عن الأحوال.. وما وراء الأحوال.. دون تعبير واضح.. ولكن بتلميحات شاردة.. تكشف عن معان عميقة بعيدة)... أمد يدي في حركة عفوية.. أتحسس شعري الذي ابيض..والتجاعيد في وجهي..وأرمق في

عجب.. ملامحها التي مسح عليها الزمن بيديه...فزادها حلاوة وجدّة..

ابني يقترب مني.. ويقدم لي زميلته:

-" نورا يا أبي"...

-"أهلاً يا ابنتي"...

تبتسم.. تمد يدها.. تهمس.."أرى أنك تعرّفت والدتي".

ألتفت في حدة..."أنت"..تجيبني البسمة.. والصوت القديم..."ابنتي وابنكَ.."... فأضحك..من قلب القلب..أضحك.. وملامحها تعود..لتملأ كياني كله.. تُسكرني.. تعيد إليَّ الدنيا التي ولّت..تزرعني في رحم فرحة..حتى يدوّي الصوت الذي ينادي على الخريجين..أفيق..أنزع عيني من عليها..أرمق ابني يتقدم في وقار.. يعتلي المسرح.. يتسلم شهادته..يشير لفتاته.. يضحك.. ويسلّم على رفاقه... فيصفقون.. وأصفق..تغافلني دمعة..لا أستطيع منعها.. تسقط فجأة... ترتطم بيدي... وأنا ما أزال أصفق في حرارة.. أنظر إليها... وإليه..وأصفق...أصفق...أصفق..



هوامش على دفتر النكسة

— ١ —

وغــدًا..تتحملين..تلبسين فستان زفافك الغالي..وتغــرقين في التهاني والزغاريد..وضحكات الفرح والسرور..تبتسمين في وجــه أصــحابك.. وتغــنّين..وترقــصين بــين يديه..وتنسيني..ولكنك إذ تكونين وحدك..تذكرينني..

هامش:

عندما كانت وحدها..كانت تخلع ملابسها بهمة..وتــضع العطور المختلفة..وترتدي ربع قميص النوم الأبــيض..وتهــدأ درجة الإضاءة..حتى ينتهي زوجها من حمّامه..

— ٢ —

وغدًا..تتمددين عارية كالسيف..تحــت صــدره كثيــف الشعر..ومع تأوهــات اللــذة العارمــة..ولزوجــة حبــات العرق..تنسينني..ولكنك إذ تفيقين..تذكرينني..

هامش:

كل مرة كانت تفيق فيها..كانت تطلب المزيد..ولا ترتوي لها غُلّة أبدًا..

— ٣ —

وغدًا تضحكين لدعاباته حتى الثمالة..وتستمرئين كل حرف يقوله.. وتتدللين عليه..وتشاكسينه.. وتتمسحين كالقطة فيه..وتنسينني..ولكنك إذ تحتاجين البهجة الحقيقية التي تهز القلب..تذكرينني..

هامش:

كانت بهجتها الحقيقية.. لحظة أن يضمها زوجها بين يديه..

— ٤ —

وغدًا..تنسين كل الذكريات..كل الأفراح الصغيرة التي هزّتنا..كل الأحزان الوديعة والأحلام..كل الوعود.. تنسين كلام الحب.. وضوء الشمس.. ورائحة الورد والليل والحنين..والسير بلا هدي في الطرقات ساعة نزول المطر..تنسين ضحكي وبكائي.. المخلوط بضحكك وبكائك..وتنسينني.. ولكنك إذ تطالعين الليل وحدك..تذكرينني..

هامش:

الليل لديها الآن أصبح مخصصًا لزيارة الأقرباء..والجلوس على الإنترنت..والتجوال بالسيارة الفاخرة من أجل نسمة هواء..

— ٥ —

وغدًا.. تنسين أحلامي التي ضيعتِها..وأحزاني التي أهديتــــها لي عن طيب خاطر.. وجراحي التي لا تلتئم..وقلبي الذي فقــد الذاكرة..ودنياي التي أشهرت الإفلاس على يديك.. ولكنك إذ تستمعين لإحدى أغانينا العاطفية -الــتي همِنّــا بهــا حبًــا- تذكرينني..

هامش:

لا يعرف أنها الآن عندما تسمع أي أغنية عاطفيــة تظــل تضحك حتى تدمع عيناها..

— ٦ —

وغدًا.. تنسين ملامح وجهي.. وخطوط جبيني..وشــكل أصابعي.. ولون عيوني..وطعم قبلاتي..ودفء أحضاني.. ولون بشرتي..ولكنك إذ تُنجبين..وتنظرين لملامح ابنك..تذكرينني..

هامش:

أنجبت أربعًا من البنين..و لم تتذكره..

— ٧ —

وغدًا..تسقط من أذنيك أصداء كلماتي.. ويتلاشى صوت همسي ومناجاتي..وكل أحاديث الليل في الهاتف حتى مطلــع الـــصباح..ولكنـــك إذ تطـــالعين قـــصيدة لي في أي جريدة..تذكرينني..

هامش:

رأت اسمه مرارًا في أكثر من جريدة.. وكانت تجهد ذهنها كل مرة -مخلصة- لتتذكر أين سمعت اسمًا مشابهًا من قبل...

— ٨ —

وغدًا..تنسَين كل ما كتبته من وحيك..كل الأشعار التي ألّفتها في مجد عينيك..ولكنك إذ تطالعين النسخة التي أهديتها إليكِ من كتاباتي..تذكرينني..

هامش:

لا يعلم أنها استعملتها من زمن لتغليف الشطائر وتنظيف المائدة..

— ٩ —

وغدًا..تقولين له في لحظة صفاء.."أنت أول وآخر من أحببت..وما عرفت قبلك إلا وهمًا..أنت الذي كنت أفتش عنه"..ويضحك مزهوًا وتضحكين..ولكنك إذ تطالعين صورنا.. ونحن متشابكا الأيدي في رحلات الكلية..تذكرينني..

هامش:

لا يعلم أنها مزقت كل صوره وخطاباته قبل زفافها..وهي تضحك مع زميلاتها على تعلقه الشديد بها.. وتريهم خطاباته.. وتحكي مزهوة عن نوادره..وأشعلت النار في البقايا..

— ١٠ —

وغدًا..تبدو لك الحياة وكأن ليس هناك أجمل منها ولا أهنًا..والسعادة طوع أمرك..ولكنك إذ تحلمين بأيامي..وترينني آتيًا من بعيد فاتحًا ذراعيّ..تذكرين أن حياتنا التي رسمناها سنينًا..كانت حتمًا ستكون أجمل..والسعادةَ أصفى..

هامش:

لا يعلم أنها لم تعد تحلم..

— ١١ —

وغدًا.. تتوحدين معه..وتدورين في عالمه.. وتكونين كساعة يده..ومنديله الورقي.. وجريدته وماكينة حلاقته..ولكنك إذ تعودين من السفر الطويل..

وتغادرين مواتك وغربتك..وتأتين إلى أرض ذكرياتك..تذكرينني..وترفعين سماعة الهاتف في لهفة..لتستعيدي الدنيا التي ولّت..مع موسيقى صوتي..

هامش:

لا يعلم أنها نسيت رقم هاتفه من ليلة زفافها كما أنها الآن لا تتحدث إلا في "الموبايل"..

هامش أخير:

إنها قوية الذاكرة حقًا هذه الفتاة!!

عن الوجوه التي بدت
أكثر تفاؤلا من المعتاد

لم أتمتع قط برحلة "المترو" مثل اليوم!

فالوجوه -لسبب ما- كانت تبدو أكثر تفاؤلا من المعتـــاد، ترمقني في ود، وتتركز دائمًا عند عينيّ المندهشتين، لكن أغرب شيء كان يحدث على الإطلاق، أنني عندما أبتـــسم في وجـــه أحدهم وأعاجله بـــ"صباح الخير" كـــان يـــادلني الابتـــسام والتحية!

نسيتُ محطتي لانشغالي بحصد الدفء البشري من المحـــيطين بي، حتى سألني أحد الركاب قبل نهاية الخط بقليل: "هو إنـــت نازل فين؟"

أحدق لحظة فيه غير مستوعب للأمر، ثم أفيق فجـــأة وأنـــا أقول في حرج: "المحطة الجاية".

يتهادى"المترو" ويدخل إلى الرصـــيف، تنفـــتح الأبـــواب، ويخرج العديد من البشر، كنت آخر من بدأ في زحزحة جسده على مضض وأنا لا أتمنى الخروج.

هالني صياح البشر من حولي، مع شعوري بألم انغراز شيء في لحمي، عندما انغلق مصراعا الباب وأنا بينهما فجأة، ثم اندفع "المترو" مرة واحدة للأمام!

تفجرت الهستريا من حولي، ومن يحاول أن يجذبني بقوة إلى الداخل، ومن يصرخ، ومن يرفع "الموبايل" ويطلب من لا أدري، ومن يحطم النافذة الزجاجية الخاصة بالطوارئ، ويشد ذراع الفرامل ليوقف "المترو"

لكن شيئًا لم يحدث.. استمر "المترو" في اندفاعته المجنونة، وأنا بالكاد أشعر بأطرافي!

أحاول التماسك وأهمس لنفسي: "كلها محطة وتنزل"!

الأضواء التي تومض في عيني فجأة ثم لا تلبث أن تسحب أذيالها وتعود من حيث أتت، الصوت العالي المدوي، والأفكار.

جاءت المحطة التالية بعد وقت طويل جدًا، وصاح الركاب المتجمعون على الرصيف عندما رأوا وضعي الغريب، وأسرعوا نحوي يحاولون جذبي للخارج، ويحاولون فتح الباب، وانفتحت بالفعل جميع أبواب "المترو" عدا الباب الذي حُشر فيه جسدي!

وجاء المهندسون وسائق القطار وناظر المحطة، والكل لا يصدق كيف حدث هذا، ولا يجد طريقة ما لإنقاذي!

اتصالات وأصوات بعيدة لعربات إسعاف، وأيساد تمتد لتربيت كتفي، ونظرات ذهول وألم تستوطن عيون من لا أعرف.

يعاودني الشعور بالدفء -رغم موقفي- مرة ثانية، وأتمنى ألا ينتهي هذا الاهتمام الشديد بشخصي المتواضع.

ناظر المحطة يشير إلى ساعته في قلق وغضب، والسائق يتململ في مكانه، والركاب بعد فترة ينتبهون لما ينتظرهم من مواعيد ومسئوليات، فتتحول نظرات عيونهم إلى الاتهام!

ألمح إشارة خفية من ناظر المحطة، يستقبلها السائق بحذر، ثم يندفع إلى كابينة قيادته، ويبدأ في تشغيل المحرّك.

ينتبه الناس، فيرمقون بعضهم البعض على استحياء ثم بلا مبالاة، ويندفعون لركوب العربات التي سَرت فيها الحياة من جديد واستعدت للمغادرة!

وبدأ "المترو" مرة ثانية في التحرك.

في البداية شعرت بالدهشة، ثم قررت أني جائع قليلًا، فمددت يدي الحُرّة دخل القطار إلى أحد الركاب أطلب منه قطعة "ساندويتش" من التي يمسكها بيده، فمنحني قطعة صغيرة جدًا على مضض.. لكني لم أستطع إيصالها لفمي!

تطوع أحد الشباب وأخرج من جيبه "مطواة" في الخفاء، وثقب زجاج الباب بعد عناء، بحيث يسمح لي بتمرير "الساندويتش" لليد الأخرى خارج القطار.

ولما أحسست بالعطش تبرع لي راكب بعلبة كانز.

مضت المحطات، ومضت الأيام، والناس يستقبلونني بدهشة في البداية، ثم برتابة وعادية، حتى لم يعد أحد يشعر في النهاية بوجودي على الإطلاق، وكثيرون حسبوا يدي الممدودة داخل القطار شماعة يمكنهم وضع ملابسهم عليها، خاصة في أوقات الحر الشديد.

بعد فترة نسيت الجوع والعطش و لم أعد أشعر بغير قليل من البرد من اندفاع القطار، لكن حتى هذا الشعور سرعان ما أخذ يتراجع حتى اختفى.

أكثر ما أسعدني أنني أخيرًا استطعت حفظ أسماء محطات "المترو" من كثرة لفي ومروري عليها، فهذا شيء فشلت في عمله سنوات طويلة، رغم مواظبتي على مراقبة اللوحة الملصقة أعلى كل باب في القطار.

واستطاعتي كذلك أن أزوّغ من دفع ثمن التذكرة، والركوب آلاف المرات، دون أن أكون مضطرًا للنزول في أي من المحطات التي تستقبلني وتودعني طوال الوقت.

خيوط العنكبوت



أرى أبي.. يشاهد المسرحية الكوميدية في التليفزيون.. ويضحك.. أمي ترمق الساعة كل ثانية.. وتهمس.."لقد تأخرتَ".. يرتفع ضحك أبي.. يشير بيده في ضجر..ويهمس.."لن يضيرهم الانتظار قليلاً".. تنتهي المسرحية..يفرغ صبر أمي.. ويقوم أبي.. يشرب كوبًا من الماء المثلج.. يقبّلني..ينظر لأمي في حنان..ويدخل فراشه.. ويموت..!

أرى إخوتي.. يدخلون عليه.. يقبّلون يديه ورأسه..وأنا أقف خارج الحجرة.. أرتجف.. تجيء أمي.. وتمد يدها تداعب شعره الهامد.. تقبّل رأسه وتقول.."إلى اللقاء"..تقف أمي وتصيح.."انتهوا سريعًا"..يبدأ أخوتي جميعًا في البكاء.. تنسل أمي من بينهم.. وأجدها أمامي فجأة..ترمقني في غضب:

ـــ "لماذا لم تنم؟"

ـــ "أنا خائف"..

ـــ "لن تخاف بعد اليوم"..

تشير لإخوتي..فيتسرّبون من الباب.. وهم يتمازحون..تدفعني داخل الحجرة وتغلق الباب.. أصرخ..

أناديها..أدق على الباب.. حتى تدمى يداي..ينهض أبي من الفراش.. ويصرخ.."اصمت..إنك تقلقني"..ويموت.. أزداد رعبًا..وأنا أحدّق فيه..ينهض ثانية ويقول.."انظر..ولا تُضع وقتك"..يشير بيده ناحية الباب..ويموت..

أرى الباب يتحوّل لنافذة ضخمة.. أشاهد من خلالها أمي وإخوتي.. يجلسون حول مائدة اجتماعات كبيرة.. تقول أمي"لا يمكن أن ننتظر للصباح"..يقول أخي الأكبر.."لن نجد مشيّعين الآن"..تقول أمي.."لنستأجرهم"..تقوم وتتجه ناحية صندوق أبي الضخم.. تفتحه وتُخرج منه رزمًا من النقود.. تقول.. "من سيأخذ منها؟".. يقوم الأخوة ويبدأون في التشاجر.. تقول أمي في استمتاع.."الأقوى له نصيب"..يزداد العراك..حتى يسيل الدم.. ويرتمي الإخوة في النهاية.. منهكين.. تقول أمي في انتصار.."سآخذها أنا".. تعود النافذة بابًا..يدق عليه الأخوة ويدخلون.. يجيء وراءهم خلق كثير.. في يد كل منهم ورقة نقدية من التي رأيتها في الصندوق...يرفعون أبي.. ويحملونه على أكتافهم..ويمضون.. أصرخ.."أبي حي"..تنطلق ضحكاتهم وهم ينزلون الدرج.. أشد أمي من يدها.. وأقول.."ماذا سيفعلون بأبي؟"..تزيح يدي في حدة..وتبدأ في طلاء أظافرها بلون وردي..وتقول بلا مبالاة.."اذهب لتعرف".

أنزل الدرج..وأجري خلفهم.. يتوقفون أمام حفرة ضخمة في منتصف الشارع -أراها لأول مرة الآن- يلقونه فيها

بإهمال.. ويعودون لمزاحهم.. أبكي.. وأنا أنادي أبي في حرقة، يجيئني صوته فجأة.. من الأعماق البعيدة المظلمة.."اصـــمت.. إنك تقلقني"..مختلطا بصوت صافرة قطار.. يتأهب للرحيـــل.. وينفث الدخان بكثافة من مدخنته المتداعية..

أرتجف.. وأنا أجري ناحية البيت.. أمسح دموعي وأكـــتم الشهقات في صدري.. أرى الأضواء في بيتنا من بعيد..وأسمـــع الزغاريد والضحكات الصاخبة.. أقترب في حيرة.. بشر لا أول لهم ولا آخر.. إخوتي في أبهى زينة..وأمي ترتدي فستانًا أبيض مكشوف الذراعين..تتأبط ذراع رجل ضخم..من الذين ألقوا أبي في الحفرة.. والجميع يغنّون..

أصرخ.."ماذا تفعلون؟"..تضيع صرختي في الزحام.. يجـــيء رجل بعمامة خـــضراء..ويقـــول كلامًـــا كـــثيرًا..تـــدوّي الزغاريد..وينفضّ الجمع سريعًا.. أرى الرجل الضخم..يشاهد المسرحية الكوميدية في التليفزيون ويضحك.. أمي ترمق الساعة كل ثانية.. وتهمس.."لقد تأخرت".. يرتفع ضحك الرجـــل.. يشير بيده في ضـــجر ويهمـــس.."لـــن يـــضيرهم الانتظـــار قليلاً"..تنتهي المـــسرحية.. يفـــرغ صـــبر أمـــي.. ويقـــوم الرجل..يشرب كوبًا من الماء المثلج..يقبّلني.. ينظر لأمـــي في حنان..ويدخل فراشه.. ويموت..

انكسار الأشرعة

(١)

كل يوم.. قبل أذان الفجر بلحيظات.. ترى أمّك تطرق الباب.. وهي ترتعد من البرد والمطر الذي يكاد يغرق العالم.. وتجري أنت في نفق مظلم وطويل.. تقفز وتلف وتدور وتنخفض وتتمايل.. حتى تفتح لها... وتراها أمامك..لأول مرة منذ سنين طويلة.. تمسك بقلبها الواهن... تنطق اسمك بلوعة... وتموت.

ترى ملامح وجهها الطيب في وجوه زميلاتك في العمل - حتى وإن كنّ شابات صغيرات!- وتشم رائحة طعامها كلما مررتَ أمام أي مطعم، تشاهد نظّارتها معروضة في كل واجهات محلات النظارات، وثوبها البسيط في كل محلات الملابس، وتردد اسم دوائها كلما ذهبتَ للصيدلية تبحث عن دواء!

كل لقمة عيش ونَفَس وتنهيدة وحركة.. تتذكرها.. وتعلم أنك لا تملك -كالسابق- ترف رؤياها.. وبينكما كل هذه الكيلومترات والصحارى والمدن والبشر!

وبينكما.. طموحك الكبير.. الذي أخرجك من القمقم ذات يوم.. ودفع بك إلى بلاد الله الواسعة.. لتفتش عن خاتم سليمانك.. وبساطك السحري الذي وضعتَ له ألف ألف تصميم قبل أن تقرر أن تأتي هنا... لتجده.

وما زلت لا تملك في نهاية يوم معدني خشن مثقل بالإرهاق.. إلا أن ترفع سماعة الهاتف.. لتقول لها عبر المسافات البعيدة: "وحشتيني يا أمي"..

فترد عليك... مثل كل مرة.. بدموعها التي لا تراها.. ولكنك تشعر بكل قطرة فيها.. فتمد يدك لتمسحها من على خدك أنت!

(٢)

للأعوام الطويلة لغة تخاطب بها القلب والأحلام المعتّقة في سراديب الروح.. أصبحتَ تفهمها أخيرًا، وتتحاور مع مفرداتها.. هذا هو العام الواحد الذي كنتَ تُقسم أنه كل ما ستهبُه للغربة منك.. تطاول وأنجبَ أيامًا وشهورًا لم تكن في الحسبان.

والبئر ما يزال فارغًا.. والروح ما تزال على عطشها القديم..

كم للذكريات في دمك من ثارات؟!

كم للمدن.. للرفاق.. للأحلام...

لكن الرحى تدور.. والضوء يجذبك إلى مركزه أكثر.. ولا شيء يجلس على مقعد القيادة في داخلك.. إلا سلطة القرش والجنيه!

(٣)

هذه لحظات ستتذكرها للأبد..

حتى لو خبأتها عن نفسك، قلبُك سينبشُ رفاتِها، ويظلُ يعرضُها أمام عينيك طوالَ العمر!

ــ "أحبكِ ولكني أريد أن أبحث عن ذاتي".

ــ "أولستُ ذاتَك؟"

ــ "ذاتي الصغرى.. وأنا أفتش عن الكبرى!"

ــ "هل هو المال؟"

ــ "القوة التي يمنحها المال".

ــ "والقوة التي يمنحها الحب؟!"

ــ " إذا تصارعت القوتان.. انهزم الحب".

ــ "لو كان الحب ضعيفًا!"

ــ " لقد قررتُ".

ــ " ولم تجد لي وسط قراراتك مكانًا؟!"

ــ "............"

ولم تمنحك بعدها لا كلمة تتصبّر بها، ولا حتى نظرة عتاب تشغل نفسك بتفسيرها فيما بعد، فقط.. ظهرها الصغير الذي كان آخر ما رأيته منها، وهو يتأرجح ويبتعد، ويغيب في صمت.

(٤)

الملمس الذي تركتَ من أجله كل شيء، يتخللك وأنت تحتضن راتبك الشهري، وتتحسس في حنان كل قطعة وجزء، تنسى التعب والإرهاق، ولا تتذكر إلا رقم حسابك في البنك، والرصيد الذي يتضخم كل آن..

ترفع السماعة وتطلب والدتك، لا أحد يرد، مرة ثانية، نفس الصوت الخانق للجرس اللحوح الذي لا يعيره أحد أي انتباه..

تغلق الهاتف وقلبك يخفق بشدة.

(٥)

كنتَ تكتب جيدًا، كل من قرأ لك أخبرك بهذا، وتمنى لك مستقبلاً باهرًا..

في لحظة فاصلة أحرقتَ كل ما كتبتَه طوال عمرك..

وبعتَ كل ما كان يزيّن مكتبتك من كتب..

فقد فهمتَ أخيرًا حقيقة اللعبة..

ولم تعد تجد إشباعًا في نوادي الأدب الإقليمية ولا النشر في بريد القراء ولا الاشتراك في مسابقات الهواة..

كنت تبحث عن إشباع أكبر..

عن ضوء وعن شهرة..

قررت أن الوقت قد حان لنسف كل ما أثقل قدميك كل هذا الوقت..

وقد فعلت..

(٦)

لحظات ضعف لا شك تمر بها أو تمر بك..

ينبض قلبك بقوة.. يضيق تنفسك... ترتعش حدقتا عينيك..

وتفكر في العودة...

تخايلك صور الطرقات الترابية المعجونة بعرق الناس الغلابة.. رمضان وبهجته التي لم تستشعرها منذ سنين.. شلة المقهى وأحلام الشباب..باب البيت المعدني المتهالك الذي يعزف سيمفونيته الصدئة كلما دفعته لتدخل...

لكنك لا تلبث أن تُعد لنفسك كوبًا من الشاي الثقيل بدون سكر كما تحبه.. ببطء وتأن.. تفتح باب ثلاجتك العامرة.. تُخرج قطعة لحم وقليلا من الأرز.. تجلس لتستعيد توازنك.. وتفكر..

لماذا تعود.. وكل شيء يسير كما تتمنى؟

ما الذي ستخسره لو بقيت عامًا آخر أو عامين؟

سيظل الكون يدور، والبشر يسيرون، والحياة تتدفق..

كم أضاعتك العواطف.. لكن اليوم أنت تدرك تمامًـــا مـــا تفعل.. ولن تتركها تلعب معك لعبتها القديمة!

كم من الرفاق الرومانسيين سقطوا أمامك.. وفقدوا كـــل شيء في لحظة ضعف.. لم يستطيعوا مقاومتها!

أنت لست مثلهم، ولا تملك نقاط ضعفهم، أنت مكتمـــل، أنت أقوى.

(٧)

أمك مريضة.. خمنتَ هذا قبل أن يأتيك الهاتف من أختك!

وأحسست بخوف حقيقي عليها.. عليك.. على عالمك..

لستَ بهذه القوة التي تتصورها إذن..!

هل آن الأوان لتعود وتراها؟

لكن ظروف عملك لا تسمح... والراتب الـــشهري..و.. أمورك المعلقة.. و..

سوف تتحسن والدتك بلا شك.. وسوف تستأنف الحياة سيرها..

لا داعي لكل هذا الفزع.. ولا داعي للتصرفات غير المدروسة..

يومان أو ثلاثة وتطليها وسوف ترد عليك بنفسها.. وينتهي كل شيء..

(٨)

كل تحكمات رئيسك يمكنك التعامل معها بحنكة الآن..

اختلفتْ ردود أفعالك، وتقييمك لموضوع الكرامة كثيرًا عن الأيام الأولى لك هنا..

امتلكت أخيرًا النظارة السحرية التي تستطيع بها أن ترى ما تريد أن تراه في الوقت الذي تريد فيه ذلك..

اختفت الحدود الحاسمة بين الأشياء وبعضها البعض..

وأصبحت تتمكن ببراعة من تمييز اللون الرمادي!

(٩)

علاقتك بأختك تجمدت.. تليفون أو اثنان كل عام، وربما رسالة في إحدى المناسبات التي لم تعد تمثل لك أي قيمة، لم تعد تعلم كم عندها من الأولاد، أو أحوالها مع زوجها..

نفس القصة مع أصدقائك، الذين رحلوا والذين لم يزالوا يزحفون على أرض الوطن، الكل تسربل في ذهنك بغمامة سوداء، تتسع كل يوم لتجور على مزيد من عالمك، وترمي بك أكثر في أحضان ما اخترتَ لنفسك بكامل إرادتك الحرة.

(١٠)

منظر شروق الشمس والعصافير المزقزقة التي تنادي على ما لا تراه.. لم يُحرِّك فيك شيئًا.. بجمود وتصلب.. تراقب.. وتنتظر.. علّ شيئًا فيك يصحو.. ويطالبك بأن تنفعل..تواصل الشمس الصعود للأعالي حتى تضطر لإغلاق عينيك عن وهجها.. وتكمل العصافير سيمفونيتها.. وأنت تُوقف سيارتك جوار مقر عملك في رتابة.

(١١)

مضى أسبوع.. ثم جاءك الخبر.. تحمله دموع أختك.. وضربات قلبك التي ارتفعت إلى حد خطير..

ها أنت قد أضعتَ آخر فرصة لكي ترتمي بين أحضان أمك وتبكي..

ها أنت قد فقدتَ آخر خيط يربطك بالسماء..

......

(١٢)

لم تخبر أحدًا بقدومك..

لا أختك ولا زملاء العمل ولا أي أحد!

لا تدري لِمَ فعلت هذا!

أهم شيء أن تصل في الوقت المناسب.. وتحمل نعش أمك.. وهي التي طوال عمرها تحملك..

رغم ازدحام المطار بالمسافرين من كل الجنسيات.. تشعر بوحدة خانقة..

ولأول مرة تبدو بكل هذه العجلة للعودة لبلدك!

عرق -رغم هدير أجهزة التكييف- يجتاح روحك ذاتها.. ذكريات ورؤى وأحلام مؤلمة تصر على مرافقة خطواتك...

هل تذكر أول مرة هبطتَ فيها هذا المطار؟!

هل تذكر كم من السنوات مضى؟!

ماتت أمك.. ترددها في نفسك.. تتذوقها.. فتقف في فمك.. وتنغرز في حلقك..

ترى نفسك في بيت عريض بلا جدران، يرتفع السقف بلا عمد، أشياؤك مبعثرة بلا ترتيب، وكلما مددت يدك إلى إحداها، تباعدت، يهوي السقف فجأة على رأسك، ترفع يديك، فلا تقدران على صده، ينغرز جسدك في الأرض، في حين يواصل السقف الهبوط ببطء، حتى تدفن تمامًا وفوقك يمشي العابرون دون أن يلحظوا وجودك!!

لماذا تتأخر الإجراءات هكذا؟!!

تشعر أنك على متن مركب فاخر وواسع يتفتت قاعه ببطء، وتهاجمك سرطانات البحر، ومن بعيد يبدو قرش

شرس في طريقه إليك خصيصًا، وحيوانات طائرة غريبة تُصرّ على مهاجمتك رغم صوت صراخك العالي وجريك في كل مكان ومناداتك على كل مَن تعرف ومَن لا تعرف!!!

الضابط يضع ختمه على جوازك.

ليل أسود وقاتم يظلل رأسك، تفتح النور، ينطفئ، تضيء شمعة، تهب ريح خفية وتقصف عمرها، تُشعل "الكشاف" الحديث الذي اشتريته بثمن غال، ينفجر في وجهك وتنغرز قطع الزجاج الدقيقة في لحمك!!

تصرخ وتصرخ وتصرخ.....

تليفونك يرنّ.. نعم هو تليفونك.. يرنّ..فكرت أن تتجاهله.. لكنك رغم ذلك.. تمد يدك.. وترد..

ـــ "فينك خيي.. فيه شغل محتاجك..شو.. والدتك.. الله يرحمها..بس الحي أبقى من الميت.. يلا يلا.. منتظرينك حالاً".

بوابة الرحيل وأصوات الطائرات والبشر والضحكات والدموع والعرق وحقائب السفر ورجال الأمن في زيهم الموحد وجواز السفر والتأشيرة وصوت مديرك وابتسامة أختك التي نسيت شكلها.. و..أمك!!!

أمك التي ماتت دون أن تمسح ابتسامتُها ملامح وجهك المتعبة...

دون أن تلمس أطراف أصابعها فتضمن أعوامًا مـــن الخـــير والبركة..

أملك التي..

صوت التليفون مرة ثانية....

ويدك تمتد في استسلام لتجيب عليه.

فـــــرح النـار

عــود كبريت واحد.. وحركة واثقــة ســريعة..وضــوء مبهر..ثم أنظر باستمتاع ودهشة لانعكاســات زهــرة النــار المذهلة.. قبل أن أُفلتها من يدي وأتركها تسرح فيمــا حــولي بسرعة بالغة..أبتعد للوراء..بينما يشتعل كل شيء...كم تمنيت دومًا أن أرى النار تجتاح كل شيء.. منظر فاتن بحق..الأشــياء تتحدد بإطار رائع وواضح مختلف الألوان حولها..ولا تلبث أن تتوهج أكثر فأكثر، ثم تنكمش وتتصاغر حتى تختفي.. ما الذي يدور في ذهن النار الآن.. وهي تسعى لضم جميع الموجــودات لعالمها؟...وهي تسود وتنتصر؟... ما الذي تحس به الأشــياء وهي تلتحم بكتلة النار..تتطهر..تصل لــذروة التــوهج.. ثم تذوب؟!

أصوات الطقطقة العاتية.. وخيوط الدخان التي تغلف كــل شيء.. لماذا أشعر بكل هذا الهدوء والأمان؟.. النار تتقدم الآن من غرفة المكتبة..التي قضيت عمري أكوّمهــا.. أضــحك في سخرية.. وماذا في هذا.. فليحترق "شيللر" و"دستيوفــسكي" و"العقاد" و"توفيق الحكيم" وكل العظماء الذين صدّعوا رأسي كل هذا العمر..وأفقروا جيوبي كل هذا العمر أيضًا.. كــأني

أسمع صراخهم وهم يحترقون.. ما أمتع هذا..كم تمنيت لــو أني أراهم رأي العين وهم حقيقة يحترقون!

تراوغ النار وتتقدم ناحية غرفة أبي وأمي.. وماذا في هذا.. ألن يموت جميع الناس؟.. ثم إن الموت حرقًا.. يجعــل صــاحبه شهيدًا.. أو لست بــرًا إذن بوالــدي إذ أمنحهمــا شــرف الشهادة؟.. تعجبني الفكرة جدًا.. فأضحك في استمتاع.. آه.. لو أستطيع أن أساعد جميــع البــشر بمثــل هــذه الطريقــة الرائعة..لأبقي عاريًا من البشر.. وحدي فوق قمة هذا العالم..

النار تقوى.. تسود.. وتتربع فوق عرش الدنيا..أتأمل..أسمع لها زئيرًا..ويخطف عينيّ الــوهج..وتتــسلط علــى رأســي الفكرة..لماذا أظل وحدي.. بعيدًا عن فرح النار..بعيــدًا عــن طهارتها وعنفوانها؟.. فلتأت لي أنا أيضًا..أنــا أحــق النــاس بضمّتها الحانية وخلاصها المذهل..أتقدم قليلاً.. وأقف في طريق النار..أنا أنتظرك..

أشعر بالتوتر يغمر كل جــسدي.. وبالــشوق كــذلك.. واللذة.. واللهفة.. والرجفة العاتية.. وأنا أرى النار تبدأ رحلتها نحوي..أخيرًا شعرتُ بوجودي.. سوف تصل لي في أي لحظــة الآن.. أفرك كفيّ.. وأمسح حبات العــرق... أبحلــق فيهــا بشدة.. وقد بدأت تتلمس الطريــق نحــو ملابــسي..أشــعر بدغدغتها في كل جسدي.. الحرارة الواهنة.. الحرارة العالية..

الحرارة الطاحنة الرائعة...النار.. النار.. أصرخ في جنـــون.. في سُعار..في ألم ووله..في لذة وانهيار..أصرخ..أصرخ.. أصرخ..

ومن خلال الدخان الذي أصبح كثيفًا كجدار.. واللـــهب الذي أصبح عظيمًا كطود.. أرى –كالطيف– المفتاح يـــدور في قفل الباب من الخارج.. وأبي وأمي يقتحمون المكـــان مـــع جمع غفير من البشر.. وهم يصرخون ويولولون ويحاولون إطفاء النار..

لكني وحدي الذي كنت أبكي وأضحك.. أسقط وأنبـــت من الأرض.. أذوب وأولد.. أنادي وأحترق..وأدرك أن كـــل شيء قد انتهي..قد انتهي فعلاً....

الحمامة والعكاز

— ١ —

الحمامـــة المتكئة على حافة الإفريز.. بيضاء.. والعكـــاز في يـــدي..أسمر..لو تقدمتُ خطـــوة..طارت.. لو وقفتُ ثانيـــة طارت.. تفرد الجناحين.. فأُشهـــر العكاز..تُلقي نظرة عـــابرة عليّ..فألقي نظرة ثابتة عليها..ترتفع فجـــأة.. وخلفـــها يطير العكاز..تراوغ.. تتباعـــد.. تُفلت منـــه..يختلّ توازني علـــى رغمي.. يجذبني الطريق في قوة من يدي.. أسقـــط..وعينـــاي معلقتان برفرفة الجناحين المبتعدين...

— ٢ —

قررت أن أرسل برقية حب وتأييد.. للـــسيارة الـــسوداء الضخمة التي صدمتني وأنا أعبر الطريق.. إنها الشيء الوحيد في هذا العالم..الذي اقترب مني لهذا الحد..

— ٣ —

في الفـــــرح الضخم.. كان الجميع يهنئونها.. في كفنـــها الأبيض الغـــالي.. وكنت الوحيد الذي هنيء أهلها..

— ٤ —

سخروا مني عندما رأوني أعـــرج.. جاءوا بالكرة.. وأخذوا يناوشونني.. في ثـــورة أهشّم العكاز على حافة الرصيف وأنـــا أشـــتمهم.. فيـــزدادون ضـــحكًا ويـــســـرعون ليـــدأوا لعبهـــم..وعندما أحـــاول المسير.. لا أستطيع.. أرتمي على الأرض.. وأبكـــي.. وخشب العكاز يلتئم في بطء..يقف ثانية أمامي ويتقدّم مني وحده...

— ٥ —

لم أخبرهم أنه زارني بالأمس مرة أخـــرى..جلـــس علـــى حـــافة فراشي.. تناول الشاي وأكـــل بعـــض الخبز البائـــت عندي.. قـــال إنه لن يجد خيرًا مني..وعنـــدما قـــدّمت لـــه سيجارة..دخّنها ممتنًا..وحملـــني معـــه على فرســـه.. ليريـــني قصـــري في مملكته..كان من الذهـــب الخالص.. قلت له.."لا أحـــب الذهب..منذ رأيته يشترّيها به".. فأمرهم أن يكون من الياقوت.. ففعلوا..وعندما طلبت.. منحني عباءته.. ثم أعـــادني لحجرتي قبل أن يستيقظ أحد..

— ٦ —

زارني لآخر مرة اليوم، وأهداني درعه وسيفه، قـــــــال لـــي "لقد حان الموعد"، وهو قد أصبح كبيرًا جدًا على مثـــل هذه الأمور..ولم يعد سواي يمكنه أن يفعلها..مثلما خطط هو ودبّر بالضبط.. منذ رآني وأعجبته.. مسح على قـــدميّ بيـــده

وابتسم.. فسرى فيهما الدفء والحياة.. أخرج صورتها مـــن جيبه..وضع دائرة حول وجهها المبتسم.. ثم أعطاني ظهـــره.. ومضى..

مكـــاشـفـات

جاء أبي وأيقظني من النوم.. قلت له.."مرحبًا..هل أعد لك شايًا؟"..همس.."فيما بعد..هيا معي الآن"..أرمي الأغطية...وأقوم معه.. يحملني على كتفيه ويخترق الجدار.. وأجد أننا نطير في السماء.. يقول.."انظر"..أرى المباني الشاهقة.. والسيارات العابرة..تستحيلُ توابيتَ ضيقةً.. داخل كل تابوت.. يرقد واحد أعرفه.. أو لا أعرفه.. في ثياب سوداء من قطعة واحدة..تلتف حول عنقه أفعى ضخمة..تعتصره في بطء.. أرى آلاف التوابيت المتراصة التي تبدأ زحفها نحو البحر.. تفوح منها رائحة مقيتة!

يبتعد البحر كثيرًا..حتى لا تطوله التوابيت..تهرب عواميد النور بجلدها وتختبئ خلف بيتنا (الوحيد الذي ظل كما هو)..أصرخ..يقول أبي.."لا تصرخ"، ثم يقول.."انظر"..أرى من أعرفهم في توابيتهم..تتبدل بشراهم رويدًا..تتساقط لحومهم ببطء..فلا أعود قادرًا على تعرفهم!

أبكي..يقول أبي.."لا تبك"..ثم يقول.."هيا معي"..ويحملني نحو البحر..ويلقي بي هناك..يلسعني البرد.. وأنا أهوي من حالق.. مناديًا أبي.. بأعلى صوت.. تلطمني المياه بعنف عندما

أرتمي على صدرها.. تجيء سمكة قرش ضخمة وتحملني على ظهرها.. أقول لها.."أريد أبي"..تتمايل..وهي تخترق بي مناطق مظلمة.. مليئة بأسماك عملاقة عمياء..

من بعيد..أرى ضوءًا أخاذًا..يكبر كل ثانية..تتوقف السمكة.. وتنفض ذيلها بعنف.. فأجد نفسي أنزلق من على ظهرها.. أمام الضوء مباشرة..أرى أبي..يغيب في قُبلة حارة.. مع حورية من البحر.. لها وجه عمّتي.. وذيل سمكة.. أنادي أبي.. يلوِّح بكفه في غلظة..أنادي عمّتي.. تصرخ في وجهي وتصفق بيديها.. فيجيء إخطبوط ضخم..يسحبني -بأذرعه الثمانية- وأنا أقاوم.. يقذفني بعنف.. فأجد نفسي على البر..

أنهض في صعوبة..وأنا أشعر بإعياء شديد.. أقول في دهشة.."أين أبي؟"..وكيف لم أغرق في البحر؟"..أجد أبي أمامي.. يبتسم بركن فمه كعادته قبل أن يموت في حادثة القطار، وقبل أن أفتح فمي.. يحملني ثانية على كتفيه..وأجد نفسي في السماء..يقول.."انظر"..أرى مدينتي من جديد.. المباني شاهقة والعواميد منيرة.. والسيارات تروح وتجيء..تأتي ذئاب ضخمة..وتحيط بالمدينة..يخرج الناس للشوارع..يتقدمون نحو الذئاب.. بهدوء ونظام..أصرخ.. يقول أبي.."لا تصرخ"..ثم يقول.."انظر"..

أرى الذئاب تتراجع..في بطء.. والناس يتكاثرون عليها..وكل واحد يُمسك في يده.. شوكة وسكينًا وحبلاً

كبيرًا.. يلفونه حول عنق الذئب.. ثم يخنقونـــه ويبـــدأون في التهامه.. أبكي..يقول أبي..."لا تبــك".. أقــول.. "أعــدني لنفسي" يقول.. "اذهب"..أقــول.."لا أســتطيع بــدونك".. يقول.."اذهب".. أجد نفسي أســير في الهــواء..بــاهتزاز في البداية.. ثم بــاتزان..أرى منزلنــا مــن بعيــد.. حجــرتي مضاءة..يناديني دفؤها.. أمسح دموعي.. وخيال يتبدّى لعينيّ.. من خلف النافذة المغلقة..أسري.. حــتى أصــل..أدق علــى النافذة.. تفتح لي فتاة جميلة.. وتقول.."لمــاذا تــأخرت؟".. أدخل.. أقف مستندًا على الحائط..وأنا ألهث..أقول لها.. "من أنت؟"..فتضحك في استمتاع.. تتحرك نحو فراشــي.. تخلــع ملابسها وتلقي نفسها فوقه..ثم تغمض عينيها..وترفــع يــدًا مستنجدة إليّ.. أقول لها.."لن تصدقي ما رأيــت"..تتــأوه.. تتمرغ على الفراش.. وتردد اسمي بصوت مبحــوح.. أقــول لها.."لقد عرفت الحقيقة".. تمد يــدها..وتجــذبني نحوهــا في قوة..أرى شكلها يتبدّل.. وتتحول إلى صورة من حبيبتي الــتي هجرتني..أقول لها وأنا أتباعد.."لماذا عدت؟"..

تقول.."لم أرحل حتى أعود"..

أقول..."بحثتُ عنكِ.. في كل مكان"..

تقول... "طوال الوقت وأنا هنا"..

أقول.. "ماذا تريدين؟"..

تضحك ضحكة ماجنة..وتقول.."أنت.."

وتعود للتثني..تقترب مني في تؤدة... أصرخ..."لم أبحث عنكِ أنتِ"..

يجيء صوتي عاليًا..أحس بالباب يُفتح في حدة.. أرى أمي ومعها إخوتي.. يرمقونني في عدم فهم.. ثم في استنكار..

تقول أمي.."في بيتي يا داعر"..أهتف.."أمي..أنا.."

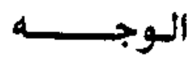
يصرخ إخوتي.."لم تعد أمك..ولم نعد إخوتك"..

تنهار التي على صورة حبيبتي..وتبدأ في البكاء.. تقول.."هو مَن استدرجني..هو من استغل حبي"..

يقول أخي الأكبر.."ستتزوجها حالاً"..

أرى المأذون.. وأرى إخوتي بجواره.. وأرى أمي..تهدئ التي على صورة حبيبتي..فأتراجع في يأس..أرى المباني التي تستحيل توابيت..وأرى حورية البحر التي على صورة عمّتي.. وأرى الذئاب تعوي من بعيد..فأختنق.. وأتلفت حولي.. ألمح أبي من النافذة..يشير إليّ.. ويبتسم.. يجيء صوته لي وحدي.."تعال"..أقول.." لا أستطيع بدونك"..يقول "تعال"..أغافلهم.. وأرمق -لآخر مرة- التي على صورة حبيبتي.. ثم أفتح النافذة..غير ملتفت لصراخهم.. أمد قدمًا..فقدم..وأبدأ السريان من جديد.. أرتفع.. وأبي.. يمد يده ليساعدني.. ولكن يده تعبرني.. ولا تمسك بي أبدًا.. أنظر إليه في ذعر..فأجد على وجهه ابتسامة ساخرة.. تتحول لقهقهة عالية.. وأنا أشعر أن الهواء لم يعد يحملني.. أرى أهلي يرمقونني

من النافذة..ويضحكون..والتي على صورة حبيبتي..تغمــز لي بعينها وهي تضع يدها على كتف أخي الأكبر.. ثم تمتــد يــد أمي..في حدة لتغلق النافذة..قبل أن يصلهم صوت ارتطــامي العنيف بالأرض.



الوجـــــه

— ١ —

تباغتني صورته وأنا أرتشف فنجان القهوة السوداء.. فتنحّي كل الأفكار جانبًا في لحظة.. وتظل وحدها في مدى إبصاري.. أين رأيت هذا الوجه من قبل؟...ولماذا أتذكّره الآن؟..هل هو صديق من أيام الدراسة..أم زميل عمل..أم هل يكون من جيرة الماضي؟..وما هذا الشحوب الغريب في ملامحه؟ ولماذا ينظر إليّ هذه النظرة الميّتة؟.. يؤلمني التفكير..ولا أصل لشيء..ألقي الأمر برمته وراء ظهري..أتمطى..وأقوم لفراشي..أريـــح جـــسدي المكدود.

وفي نومي..يجيئني.. تتصاعد ضوضاء مختلطة عجيبة..مـــن حيث لا أدري..ثم يبرز وجهه فجأة من العدم..معلّقًا في فضاء لا نهائي.. معدوم النجوم.. يحاصرني بذات النظرة الخاويـــة.. فأرتجف..وأبدأ في التراجع..إلى حيث لا مكان.. يتقدم ناحيتي في تؤدة..وفي عينيه إصـــرار عجيـــب.. تخفـــت الأصـــوات تمامًا..حين يقف قبالتي..ويرشق عينيه النافذتين في عينيّ..يختنق صوتي..وأسبح في عرقي.. وعيناي مسمرتان في عينيه.. أرفـــع يدي أمامي.. لأتقي شرًا لست أدري مصدره..أصرخ بصوت مبحوح..لم أسمعه أنا نفسي.."ماذا.. ماذا تريد مـــني؟"..فـــلا يهتم..ويبدأ في الدنو مني أكثـــر..وأنـــا أتراجـــع..وأواصـــل الصراخ.."من أنت؟.. من أنت؟".. ولكنه لا يتوقـــف.. ولا يبدو عليه أصلاً أنه يسمعني.. يواصـــل التقـــدم في إصـــرار..

وأواصل الصراخ في يأس..يبدو كل شيء حقيقيًا.. الرعب والعدم والرعشة وحتى دموع القهر التي بدأت تسيل على خدّي.. يتقدم..وأتراجع..ويتقدم.. حتى أنتفض فزعًا من نومي.. أبسمل..وأتلفت حولي في ذعر.. ويدي المرتجفة تمتد في لهفة لتضيء النور.

وفي اليوم التالي.. بدأ الوجه يزورني باستمرار.. يبتسم ويعبس..يصرخ ويضحك بصوت مدو..ويرسم تعابير عجيبة بملامحه.. كانت له حياته الخاصة التي يفرضها عليَّ.. لحظة بلحظة..وبإصرار لا يلين.. من أنت أيها الوجه الصفيق؟..وماذا تريد مني؟!

وفي اليوم الذي يليه والذي يليه.. استمرّ الوجه يراودني..وأنا وحدي.. أو وسط الناس.. في صحوي ومنامي.. عندما آكل أو أعمل.. يتسلل إليّ.. ويظل يحلق في وجهي..ولا يحوّل عينيه عن عينيّ..حتى أفقد السيطرة على نفسي..وأهذي..وأصرخ..وأحطم ما تصل إليه يداي..

كنت أجنّ ببطء..أنفعل لأتفه الأسباب.. أتشاجر مع الجميع..ينحل جسدي.. وأكلّم نفسي بصوت عال..حتى أصبح الجميع يخافونني.. يتهرّبون مني.. ويتحاشون لقائي قدر إمكانهم.. ورغم ذلك.. فساعة تضيق بي الدنيا بما رحبت.. أهرب إلى الناس.. ومع أنهم لا يهتمون لأمري..فإنني أندس وسط تجمعاتهم.. وسط صخبهم ومشاغلهم..علّه يُفلتني.. علّه

يضلّ طريقه إليّ، لكنه كان يعرف دائمًا..ما يبحث عنه..وكيف يقتحم الجموع.. ويحدق في وجهي بالذات..ويدفعني للصراخ والهذيان.. وإطلاق ساقيّ للرياح.. دون هدف أو غاية!

بيد أني كنت مُصرًا رغم كل شيء.. أن أعرف ما الذي يحدث لي؟..ولماذا أنا بالذات؟... أعتصر خلايا عقلي.. أنبش في ركام الذكريات.. أستعيد كل ما مضى من حياتي.. وأفتش فيه.. الأخطاء والتجارب والعلاقات..الماضي وماضي الماضي.. ولكني لم أكن أتوصل لشيء على الإطلاق!

لو عرفتك أيها الوجه الصفيق.. لعرفت سر مطاردتك لي.. ولكني لا أيأس..أقرأ في علم النفس والسحر والتنجيم..أمارس الرياضات الذهنية.. لتركيز فكري واستخراج أسراره.. أدخل عالم تحضير الأرواح.. المليء بالدجل والبخور وأشباح الغابرين..أستميت في سبيل الوصول لشيء..أي شيء.. حتى يجيئني الحل بغتة.. بعد إحدى زيارات الوجه الخاطفة.. والصراخ والبكاء..وتكسير الأشياء.. وفزع المحيطين بي.. لماذا لا أصف هذا الوجه لأصدقائي.. علّ أحدهم يتعرف إليه.. ويخلصني من عذابي؟!

أتحمس لفكرتي.. وأعتقد أن الخلاص أصبح قريبًا.. أتصل بأصدقائي جميعًا، أطلب منهم الحضور على وجه السرعة..وأبدأ -وسط دهشتهم- باستماتة.. أصف وأشرح وأصوّر.. بيدي

ولساني وحركات جسدي..والأقلام والأوراق والأصوات..ولكن نظرة عدم الفهم في عيونهم.. تجعلني أتوقف فجأة.. أنظر إليهم في يأس..ثم في سخط..وأطردهم جميعًا في هياج..

ولم تتوقف زيارات الوجه..ولم تفتر همته في تكدير حياتي.. أنام وأصحو.. أضحك وأبكي.. أقف وأمشي.. وعيناي في عينيه.. في ظلام السينما..وضوء الشمس.. في كوب الماء..ومنديلي.. وسجائري..ونظارتي الطبية..حتى أجد نفسي يومًا.. أزحف يائسًا.. مغبر الوجه.. مهمل الملابس.. مطلق اللحية.. لعيادة الطبيب النفسي..أبحث عنده عن ملاذ!

لكن الزيارة لم تُضف إليّ.. غير عشرات من المسكنات.. وأدوية النوم.. والنصائح التي بلا جدوى..ونظرة جنون.. لا تخطئها عين!

لم يعد أمامي إلا الاستسلام.. لكن لمحة من عناد أخير.. حركها اليأس.. عادت تراودني.. وتدفعني للسير.. في آخر طريق ممكن.. أذهب إلى مقامات الأولياء..أطوف.. وأنذر.. أرقص مع الدراويش..حتى أسقط من الإعياء..لا أترك شيخًا إلا وأذهب إليه.. وأتمسّح بأعتابه.. ولا وليًا إلا وأسأله.."يا مولانا.. من هذا الوجه؟..وماذا يريد مني؟"..والوجه يتسلل.. يتمادي.. يسيطر.. ويسود..

تركت عملي.. واعتزلت الناس.. كنت أستقبل الوجه في استسلام.. أرمقه..ويرمقني.. في حوار صامت لا ينقطع.. لم أعد أصرخ.. لم أعد أحطم شيئا.. فقط.. أنظر.. وقد أدركت المصير الذي يدفعني إليه الوجه..في إصرار..

لم يعد أمامي..إلا الانتحار..

— ٢ —

أخيرًا.. أكتشف -فيما يشبه المصادفة- أين رأيت هذا الوجه -الذي أرّق صحوي ومنامي- في أحد الأصباح..وأنا أغسل وجهي.. كنت أنظر بعفوية.. للمرآة التي تعلو الحوض..فوجدته قابعًا هناك..يرمقني في دهشة.. متسع العينين.. في بلاهة.. وذعر.. وعدم تصديق!!

عن الكاتب

حسام مصطفى إبراهيم

* حاصل على ليسانس آداب وتربية، قسم لغة عربية، من جامعة المنصورة ٢٠٠١.
* عضو اتحاد الكتاب.
* حصل على المركز الأول في مسابقة ساقية عبد المنعم الصاوي للقصة القصيرة عام ٢٠٠٧.
* كان مشرفا لصفحة "في العميق" المتخصصة في التنمية البشرية بجريدة "الدستور".
* يعمل محررًا أول بموقعي "جود نيوز فور مي" و"عيون ع الفن"، ومراجعًا لغويًا بمجلة "سيدتي"، ومحرر ديسك بمجلة "كلمتنا".

صدر له:

١. صندوق الحكايات "١.نعيق الغراب"، مختارات قصصية ونقد، دار اكتب ٢٠١٠.
٢. جرّ شَكَل، دار ليلى ٢٠١٠.
٣. قراءة في كف الحب، طبعة ١ و٢ دار أجيال ٢٠١٠.
٤. يوميات مدرس في الأرياف، ط١ دار ليلى ٢٠٠٧، ط٢ دار اكتب ٢٠٠٩، وط٣ دار اكتب ٢٠١٠.
٥. من غلبي دار كيان ٢٠٠٩.
٦. لولا وجود الحب، ط١ دار أجيال ٢٠٠٩، ط٢ دار أجيال ٢٠١٠.

٧. . مجموعة قصص أطفال، دار أرومة الجزائرية للنشر، ٢٠٠٩.

للتواصل:

Hosammostafa_it@yahoo.com

enghosammostafa@gmail.com

hebraham@gn٤me.com

مدونة فضفضات:

www.fadfadat.blogspot.com

الفهـــــرست

اهتزازات صغيرة

جروح غائرة